محمد حسنين هيكل

آفاق الثمانينات



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

محمد حسنين هيكل

آفاق الثمانينات

الناشر : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
تلفون ٢٤٤٢٤٦ تلكس ٢٢٦٦١
ص.ب ٨٣٧٥
بيروت - لبنان

الطبعة الثامنة

١٩٨٨م - ١٤٠٨هـ

فهـــرس

مقـــدمة

هذه المجموعة من الأحاديث كتبتها في خريف سنة ١٩٧٩ ، وبدأ نشرها تباعا خلال أسابيع قليلة على الجسر الزمني الذي ربط أواخر سنة ١٩٧٩ بأوائل سنة ١٩٨٠ .

كانت هذه الأحاديث - كما شرحت في أول واحد منها - بعض حصاد رحلة ذهبت بي بعيدا الى الغرب : أوروبا شمالا وجنوبا ، ثم أمريكا شرقا وغربا .

كان الاحساس الذي يراودني قبل هذه الرحلة ، ونحن على أبواب حقبة جديدة من الزمان - حقبة الثمانينات ، أن الأجواء المحيطة بنا مزدحمة بغمغمات وهمهمات غير واضحة . . . أصوات كثيرة متشابكة متباينة الطبقات ، لكن الأذن لا تستطيع ترجمتها الى اشارات ورسائل يمكن فهمها .

وخطر لي أن أقترب لكي أصيخ السمع الى ما اعتبرته رغم غموضه مقدمات حقبة جديدة من الزمان تمهد لنفسها بالرمز قبل أن تفصح عن نفسها بالبيان .

هكذا ذهبت الى الغرب ، الى أقصى الغرب ، عبر المتوسط ثم عبر الأطلسي و حتى شواطىء الباسفيك .

□

وربما نتوقف هنا بسؤال :

- لماذا الى الغرب ؟ أو لماذا الى الغرب وحده لكي نستكشف آفاق حقبة ، خصوصا فيما يتعلق بنا هنا في الشرق الأوسط ؟

واذا كان لي أن أجيب فإني - بعد الاعتراف بوجاهة الاعتراض شكلاً - اقول بما يلي :

« من سوء الحظ - وهذا صحيح حتى هذه اللحظات - أن ما هو متاح في الغرب أوسع وأكثر مما هو متاح في غيره . ذلك أنهم في الغرب بحكم تجارب كبيرة - بينها التجربة الامبراطورية - تعلموا جمع المعلومات وتوثيقها على نطاق غير مسبوق أو ملحوق الى الآن في التاريخ ، ثم انهم بحكم تركيب المؤسسات وطبائعها لا يكفون عن الحوار مع أنفسهم ومع الآخرين ، حتى الغرباء ، اذا شعروا أنهم يستطيعون معهم أن يبادلوا نفعا بنفع .

ولعلي أزعم دون مبالغة أننا نستطيع في الغرب أن نعرف عن الشرق أكثر مما نستطيع في الشرق أن نعرف عن الشرق نفسه . وليس هناك من شك في أنهم في الشرق يعرفون عن أنفسهم وعن غيرهم مثلما يعرف الغرب وربما أكثر ، ولكن المشكلة أن الخصائص النفسية للنظم - والنظم لها خصائصها النفسية كالافراد والشعوب - تجعلهم هناك في الشرق شديدي الحرص - ولا أقول البخل - بما لديهم ، معتقدين باصرار أن التعبير الدقيق عن الأمن : شفاه مغلقة ، وأبواب موصدة ، وملفات مكتومة .

لكي أكون منصفا ، فانني خلال أكثر من خمس عشرة رحلة الى الاتحاد السوفيتي مثلا في ظروف مختلفة ومتنوعة ، سعدت بصداقة وثقة كثيرين ، وما زلت أعتز بعلاقات وثيقة وحميمة هناك ، لكن الخصائص النفسية للنظم تبقى لها اليد العليا رغم حسن النوايا وفوق أواصر الود .

هكذا فاننا في لندن وباريس ونيويورك وسان فرانسيسكو نستطيع أن نعرف عن الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية والصين أكثر مما نستطيع أن نعرف عنها جميعا لو أننا كنا في موسكو أو صوفيا أو بكين ، خصوصا اذا استطاع المراقب المهتم أن يفرز وأن يميز وأن يختار مصادره .

بل ان الزعيم الشيوعي العملاق - آخر الراحلين من عصر العمالقة - « جوزيب بروز تيتو » قال لي مرة:

ـ ان الفاتيكان ـ عاصمة الكنيسة الكاثوليكية في روما ـ هو أحسن مركز للتسمع على ما يجري في العالم الشيوعي كله .

ثم أضاف « تيتو » باعجاب لم يكن يداريه :

- هؤلاء القساوسة لديهم مقدرة هائلة على جمع الأخبار ونقلها الى كرادلة روما . . . لا أعرف كيف يصلون الى مصادرهم . . . ولا أعرف كيف يحصلون منهم على كل صغيرة وكبيرة ؟ !

ويضحك « تيتو » ويستطرد :

- لا أظنهم يحصلون على هذا كله من الملائكة !

ثم يعود الجد فيكسو ملامحه التي نحتها تاريخ حافل ويقول :

- انني أقول دائما لوزارة الخارجية في بلجراد : ابعثوا الى روما بأكفأ من لديكم من الدبلوماسيين ، واطلبوا اليهم أن تكون عيونهم وآذانهم في اتجاهها ! على قبة سان بيتر !

□

تبقى نقطة أخرى في هذه المقدمة :

- لماذا انتظرت من أوائل سنة ١٩٨٠ الى أوائل سنة ١٩٨١ قبل أن أترك هذه الأحاديث تعرض نفسها مرة أخرى على الساحة في شكل كتاب ؟

والحقيقة أنني لا أعرف أكثر من أن دافعي كان شعورا داخليا عاندني كثيرا ولم أستطع كبحه أو اسكاته .

إنني لا أستطيع أن أتجاسر وأقول إن مر الشهور أكد لديّ مقولات طرحتها من قبل كاجتهادات ، ولا أن اتجاه الحوادث اتفق مع ما رصدته من قبل كاتجاهات .

لا أستطيع أن اتجاسر وأقول بمثل ذلك لأكثر من سبب .

● من بينها أن الدرس العظيم الذي تعطيه المعرفة لكل هؤلاء الذين يحاولون اللحاق بأذيالها هو التواضع موقنين أنهم حاولوا فقصارى ما يستطيعون الوصول اليه هو الأطراف يلمسونها بأصابعهم . . . ليس أكثر مهما فعلوا .

● ومن بينها أن الكثير مما أوردته في هذه الأحاديث كان منقولاً عن آخرين ، وإن كان في وسعي الآن أن أذكر أن هؤلاء الآخرين الذين استندت إليهم وقتها كانوا ـ وبعضهم ما زال ـ في أروقة صنع القرار عند أعلى المستويات في واشنطن ولندن وباريس ـ وهكذا فانه على فرض أن هناك فضلاً فانني لست صاحبه ، وما لي فيه هو النقل والعرض والتلخيص .

□

ومع ذلك فلماذا أحاول التبرير والتفسير وايجاد تعلات للانتظار سنة كاملة بين هذه الأحاديث في صورتها الأولى ، وبينها في صورتها الأخيرة على شكل كتاب .

لماذا لا أترك هذه الأحاديث - التي لم أغير فيها حرفا واحدا وان كنت قد أضفت اليها حفنة من الهوامش بعيدا عن النص الأصلي - تعرض قضيتها بنفسها على جمهور في العالم العربي أعرف عمق اهتمامه كما أعرف نفاذ بصيرته ، كما أعرف دقة أحكامه وصدقها .

محمد حسنين هيكل

آفاق الثمانينات (١)

حقبة من الفوضى، والقلق، والخطر

من الأقوال المأثورة التي كنت أحفظها عن « ماوتسي تونج » - شعار وجدته مرفوعا في كل مكان في الصين حين زرتها آخر مرة . رأيته منقولا عن أصل بخط يد « ماو » وكان مكتوبا بكل الألوان على لوحات الخشب المنصوبة ، مرسوما بكل الأحجام على الأعلام المرفرفة ، ومنقوشا بخيوط الحرير الذهبية على رقع القماش الأحمر المدلاة على جدران المصانع والثكنات والمدارس والتعاونيات الزراعية .

كان « ماو » في هذا الشعار ينادي شعب الصين : « احفروا الخنادق وامسكوا البنادق وتأملوا أحوال العالم من حولكم وفكروا » .

وفي الأسابيع الأخيرة من السبعينات ، وفي محاولة لاستكشاف آفاق الثمانينات ، حاولت تطبيق تعاليم « ماو » !

والحقيقة أنني حاولت تطبيق نصف تعاليم « ماو » فأنا لم أحفر خندقا ولم أمسك بندقية ، ومع ذلك فقد رحت أتأمل أحوال العالم من حولنا وأفكر . ولعلي استعضت عن الخندق والبنادق برحلة عمل طويلة عبرت فيها أوروبا من الجنوب الى الشمال - من مدريد الى لندن ، وعبرت فيها أمريكا من الشرق الى الغرب وبالعكس - من نيويورك الى سان فرانسسكو ثم لوس انجلوس الى واشنطن .

أعترف أيضا - اختلافا مع تعاليم « ماو » - أنني لم أتأمل صامتا ولم أفكر وحدي ، وانما ألقيت بنفسي في خضم الحوادث والناس والأفكار لشهرين

كاملين عدت بعدهما الى قاعدتي - هل أقول خندقي ؟ - في القاهرة !

□

أحاول الآن أن أستعيد الصور ، وأسترجع الأحاديث ، وأربط وأستلخص مستعينا بمجموعة مذكرات كتبتها أثناء السفر وسجلت عليها الكثير مما سمعت ورأيت ولاحظت .

هناك نتيجة أولية تبدو واضحة أمامي من أول نظرة :

● ألم أكن أحاول استكشاف آفاق الثمانينات ؟

- نعم .

اذن فهذه هي اللمحة الأولى عن الحقبة القادمة :

« حقبة من القلق الشديد والمخاطر الكامنة » .

النظام الدولي كله مصاب بحالة غريبة أشبه ما تكون بالكساح أو بصدأ عند المفاصل .

والأوضاع الاقليمية - معظمها - في حالة لا تقل غرابة عن حالة النظام الدولي . . . حالة انفراط وتبعثر .

وحتى على المستوى المحلي الأدنى - مستوى أي دولة في حد ذاتها - فان هناك حالة ثالثة من فقدان التوازن واختلال الحركة .

هكذا فان الثمانينات تبدو أمامنا - على الأقل أمامي - حقبة غريبة من الفوضى والشلل ، من الضعف والعنف ، من الأزمات الزاحفة والتفاعلات الجامحة والصراعات غير المحسوبة .

هل ينبغي أن أعتذر عن لوحة قاتمة رسمتها للحقبة القادمة ؟

لا أعتقد أنه من حق أحد أن يعتذر عن الحقيقة كما رآها ، خصوصا اذا لم تكن الرؤية له وحده ، ومن برج عاجي معزول تشيع فيه الوحشة التي تؤدي الى التشاؤم الفردي أو التشاؤم التاريخي - وانما كانت الرؤية مشتركة باللقاء

والحوار مع آخرين وضعتهم ظروفهم - في أوروبا وأمريكا - في مواضع صنع القرار وفي مراكز الرصد والمتابعة للتيارات الفاعلة والمؤثرة في واقعنا العالمي المعاصر .

ولقد كنت أتمنى وأريد أن يكون تقريري عن الثمانينات مريحا ومطمئنا .
كنت أتمنى وكنت أريد ، ولكن الرياح ليست دائما على هوى السفن !

. . . . .

وأراني وقعت في خطأ يتعين عليَّ أن أعترف به مبكرا في هذه الأحاديث . فلقد وضعت العربة قبل الحصان كما يقولون . أي أنني طرحت النتائج قبل أن أورد مقدماتها . رسمت لوحة قاتمة للحقبة القادمة بدون تهيئة لذلك بالدواعي والأسباب .

والفرصة لم تفت على أي حال . ولهذا أعود - نعود معا - الى البداية .

□

لا أظننا نختلف على أن التاريخ سياق متصل ليست فيه فراغات ولا فجوات ، ومن ثم فاننا نستطيع القول - متأكدين - أن الثمانينات هي استطراد منطقي للسبعينات ، ومن ثم فان علينا أن نلتفت الى بعض ظواهر الحقبة التي مضت قبل أن نتطلع الى احتمالات الحقبة القادمة .

أليست بذرة الأمس هي شجرة الغد ؟
وبالتالي فهل يمكن أن يكون مولود الثمانينات شيئا آخر غير حمل السبعينات ؟

هكذا يلزمنا - فيما أظن - أن نتوقف قليلا أمام ما حدث - ولم يحدث - في الحقبة التي مضت ، حتى نستطيع أن نتصور ما يمكن أن يحدث - أو لا يحدث - في الحقبة القادمة !

واذا فعلنا ذلك فسوف نكتشف ظاهرة لافتة للنظر ، وهي ظاهرة نادرة في

التاريخ ، لكنها ملازمة لعصور الاضطراب فيه .

هذه الظاهرة هي أن « ما لم يحدث » في السبعينات هو الذي سيكون الأكثر تأثيرا على صياغة شكل الثمانينات من كل ذلك الذي حدث فيها فعلا .

كيف ؟

كيف لكي يكون الكلام مفهوما ومحددا وواضحا بغير ايماءات وايحاءات تبدو وكأنها من عالم الطلاسم والرموز ؟ !

□

● ● ● نبدأ بنموذج أول :

في بداية السبعينات كان هناك تصور شائع - يستند على أسباب حقيقية ، أو هكذا بدت - يرى أن النظام العالمي مقبل على فترة من التماسك والانضباط .

وكان أساس هذا التصور وجود اثنتين من القوى العظمى - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي - تفرق بينهما عقائد ومصالح مختلفة ، ولكن تقرب بينهما مخاطر وضرورات أمن مشتركة .

ان الحرب بينهما لحل خلافات العقائد والمصالح أصبحت مستحيلة بسبب تطور السلاح النووي .

كانت بداية أي حرب من قبل في التاريخ « رصاصة » أو « قنبلة » تقتل فردا أو تهدم بيتا . . . ولكن بداية أي حرب في العصر النووي الآن « ضربة » يتحول بها مائة وعشرون مليونا من البشر هنا أو هناك الى رماد، وتتحول بها خمسون او ستون مدينة صناعية كبرى الى أنقاض - في عشر دقائق لا أكثر .

وبسبب وسائل اخفاء الاسلحة الحديثة - بما في ذلك حركتها في أعماق المحيطات على الغواصات ، أو في أبعاد الفضاء العالمي على الأقمار الصناعية الدوارة في الأفلاك - لم تعد هناك ضربة أولى من طرف بغير ضربة ثانية من

الطرف الآخر . ومن ثم فان الخراب شامل وبالتالي فليس هناك مهزوم او منتصر في حرب نووية ، وانما الكل مهزوم . . . بل مسحوق !

هكذا تصور كثيرون أن توازنا قائما على التنافس الطبيعي بين الاثنين وعلى التعاون الضروري بين الاثنين سيمسك بحركة النظام العالمي ويضبط ايقاعه .

لم يحدث !

في اللحظة التي تأكد فيها « قانون الوفاق » لم تعد هناك ارادة تتولى تنفيذ القانون لأن المركز على الناحيتين أصيب بحالة ضعف شديد .

لأسباب عديدة جاءت نهاية السبعينات وليس في واشنطن ارادة قادرة على اتخاذ قرار .

ولأسباب عديدة أخرى جاءت نهاية السبعينات وليس في موسكو ارادة قادرة على اتخاذ قرار .

أتذكر حديثا مع أمريكي لامع تدوي شهرته في الآفاق . كنا على مائدة غداء في واشنطن في مطعم فرنسي اسمه « لاميزون بلانش » - البيت الأبيض - وهو على الرصيف الآخر في مواجهة « البيت الأبيض » الحقيقي مقر الرئيس في واشنطن . قال محدثي :

- أنظر عبر الشارع الى البيت الأبيض . . . هل ترى هناك أحدا ؟ . . . هناك رجل طيب يجلس في المكتب البيضاوي - مكتب الرئيس* - لكنه شبه غائب . . . حوله مجموعة من الرجال لا يعرفون شيئا عن أحوال العالم . قد يقال لي انهم يعرفون الكثير عن فنون الانتخابات ، والدليل أنهم جاؤا به من زراعة الفول السوداني في جورجيا ووضعوه في البيت الابيض في واشنطن . لكن العالم لا يدار بخبرة الانتخابات المحلية .

أكثرهم علماً برجينسكي مستشاره لشئون الأمن القومي . لكن علم برجينسكي توقف عند الحرب الباردة ، وقد تجاوزناها بكثير .

---

* جيمي كارتر وقتها

أتذكر أيضا حديثا مع سفير سوفيتي كان جاري إلى مائدة عشاء في عاصمة أوروبية ، وقال لي أثناء حديث طويل :

- لا تصدق كل هذا الذي تقرأه عن مرض بريجنيف وآثاره . . . ان السياسة في الاتحاد السوفيتي لا يقررها رجل واحد . . . وانما هناك اللجنة المركزية والمكتب السياسي وكل الأجهزة الملحقة بهما .

وقلت له بشعور من الود حقيقي :

- انك تتحدث الى صديق للاتحاد السوفيتي ، بل الى رجل يعتبر نفسه صديقا لبريجنيف . انكم لا تستطيعون أن تفعلوا ذلك الذي تفعلونه برجل في مكانة بريجنيف ولا ببلد في مكانة الاتحاد السوفيتي . ان الرجل في شبه غيبوبة ، والدنيا كلها تعرف ذلك . ولا يمكن أن يكون هناك مبرر لاستمرار بقائه على القمة الا أن مشكلة خلافته لم تجد حلا بعد . ومعنى هذا أن هناك صراعا في الداخل . وحتى اذا لم يكن هناك مثل هذا الصراع ، فان الرجل على القمة منذ خمسة عشر عاما ، وليست القمة في بلد كالاتحاد السوفيتي مكانا سهلا أو مريحا . لا يمكن لبشر أن يتحمل كل هذه الضغوط كل هذه المدة ، فضلا عن أن الرجل مريض .

ان شبه الغياب في واشنطن ليس قضية فرد ، وانما هو محصلة لعوامل موضوعية في أحوال الولايات المتحدة .

ثم أن شبه الغيبوبة في موسكو ليس قضية فرد ، وانما هو أيضا محصلة لعوامل موضوعية في أحوال الاتحاد السوفيتي .

عوامل هنا وهناك سوف أعود اليها بتفصيل أكثر فيها بعد ، لكن النتيجة التي نستطيع استخلاصها بشبه يقين هي : أن اللحظة التي تأكد فيها « قانون الوفاق » كانت نفسها اللحظة التي ضعفت فيها الارادة المكلفة بالقانون !

□

● ● ● ننتقل الى نموذج ثان :

في بداية السبعينات كان هناك احساس عام بأن المسرح الدولي مهيأ لظهور أطراف آخرين تتعدد بهم مراكز القوة في العالم .

ليكن أن حقائق القوة تعطي للدولتين العظميين مكانا متميزا على القمة الدولية ، ولكن دائرة القمة يمكن أن تتسع لآخرين يستطيع وجودهم عليها أو قربهم منها أن يعطي للنظام الدولي بالتعدد مرونة هي في كل الأحوال أفضل من احتكار بين اثنين ، سواء كان هذا الاحتكار بالتعاون أو بالخلاف بينهما .

هناك اذن - وبالقطع - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

ولكن هناك أيضا ثلاث قوى جديدة مهيأة للدخول أو للصعود : أوروبا الغربية بعد انضمام بريطانيا للسوق المشتركة - ثم اليابان - ثم الصين .

أتذكر حديثا مع « كوف دي مورفيل » رئيس وزراء فرنسا في عهد « ديجول » ، وكان ذلك الحديث في باريس في تلك الأيام التي تجلى فيها حلم تعدد مراكز القوة في العالم ، وقال لي « كوف دي مورفيل » :

- أتصور أن مركز الثقل في العالم سوف ينتقل بسرعة الى المحيط الهادي ، فهناك على شواطئه سوف تتقابل أربع من القوى الكبرى المطلة عليه : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين واليابان .

لم يحدث !

القوى الثلاث التي كانت مهيأة للدخول أو للصعود الى القمة في عالم تعدد مراكز القوة لم تدخل ولم تصعد :

● أوروبا الغربية : حضارة سابقة رأت بعد تجارب دموية مريرة عبر قرون طويلة أنها تريد الحياة ناعمة مترفة . ان الصراع على القمة تعدى طاقتها ، فاذا دخلته فلا مواردها ولا أعصابها تستطيع تحمل تكاليفه . واذا كان الحشد السوفيتي الضخم على شرقها قد يخيفها ، فان المظلة الأمريكية على

الغرب من الأطلنطي قد تطمئنها ، واذن فهي تستطيع الاستمتاع بحياتها وتستطيع أن تطمح الى « نوعية » من الحياة الغنية بالطول وبالعرض .

حياة على مستوى امبراطوري، بدون أعباء الامبراطورية

● اليابان : عملاق اقتصادي ، لكنه في حالة رعب من أي دور سياسي . . . كانت له في يوم من الأيام طموحاته ، لكن الطموحات أوصلته في النهاية الى بوابات الجحيم النووي ، فقد كان شعبه وحده هو الذي جرب في كل التاريخ حتى الآن - وربما الى الأبد - طعم القنبلة الذرية !

هو الآن لا يريد غير أن ينتج وأن ينتج أكثر وأن ينتج أكثر وأكثر !

● الصين : كانت اسطورة غطت عليها عباءة « ماوتسي تونج » لسنوات طويلة . وعندما انسحبت عباءة « ماو » تكشفت الحقيقة وهي أن الصين ما زالت بعد بلداً ناميا .

صحيح أن فيها ألف مليون من البشر ، ولكن العدد في حد ذاته ليس قوة ، بل أن العدد يمكن أن يكون - بالتخلف مثلا - مشكلة !

وصحيح أنه أصبح بلدا نوويا ، ولكن القوة النووية وحدها ليست كافية . الهند دولة نووية . واسرائيل دولة نووية . ولكن ذلك لا يجعل أيا منهما مرشحا مهيأ للدخول أو للصعود الى القمة الدولية طرفا في نظام عالمي جديد تتعدد فيه مراكز القوة !

□

● ● ● نموذج ثالث :

في بداية السبعينات كانت هناك ظنون واسعة حول « سلطة الدولة » في العصر الحديث وبوسائله .

كان الظن أن الدولة في كل بلد قادرة على أن تحكم وأن تقود .

ضرورات المنافسة والتخطيط والتوجيه من ناحية ، ثم وسائل السيطرة على الأحداث والاتجاهات وحتى الأخبار من ناحية أخرى تعطى الدولة قوة لم تكن لها في التاريخ .

وهكذا بدا في مطلع السبعينات أن المسارات كلها سياسات مرسومة تقودها بيروقراطيات مقتدرة تملك من وسائل التنبؤ وامكانيات التنفيذ ومقدرة التصميم ما هو كاف لبلوغ أهدافها .

كان ذلك - كما نذكر - هو عهد الرئاسة الامبراطورية في الولايات المتحدة . . . « نيكسون » ما قبل « ووترجيت » - وعهد فريق المهندسين السوفيت الثلاثة « بريجنيف » و « بادجورني » و « كوسيجين » في عنفوان فكرة القيادة الجماعية وعزمها على أن يكون أساس القرار السوفيتي حساب تكاليف ، وعهد « جورج بومبيدو » في فرنسا محاطا بوزراء من خريجي مدرسة الادارة العليا التي أنشأها « ديجول » لكي تضع بالمقاس والقالب قيادات وزعامات للجمهورية الفرنسية الخامسة ، وحتى في اليابان جاؤا الى السلطة بمهندس مقاول : « تاناكا » ، لكي تدار أعمال الحكم كأنها موقع تشييد وبناء !

لم يحدث !

ان السبعينات انتهت وقد تبدد وهم الدولة القادرة ، بل ان السبعينات شهدت عملية اعادة توزيع للسلطة ما زالت مستمرة .

في الولايات المتحدة مثلا راحت الأرض تميد من تحت أكبر معاقل السلطة في الدولة الأمريكية : البيت الأبيض . . . وكالة المخابرات المركزية . . ادارة التحقيقات الفيدرالية . . . قيادة القوات المسلحة . . . بنك الاحتياطي الفيدرالي . . . الى آخره .

في الولايات المتحدة - أيضا - ظهرت مراكز جديدة للقوة خارج اطار الدولة ، بل وفوق سلطانها : الصحافة . . . الشركات الدولية المتعددة الجنسيات . . . الحركات الشعبية المتفرعة النشاط من العداء للحرب الى العداء

للمفاعلات النووية حتى وان قيل بأنها لخدمة السلام . . . حركات الرفض والاحتجاج عموما . . . الى آخره .

في غير الولايات المتحدة طرأت ظواهر مماثلة في كل بلد حسب ظروفه .

والنتيجة أن القرار في الدولة - وحديثي هنا بالطبع عن دول العالم المتقدم القائد والمؤثر ، وليس عن الأنظمة شبه الاقطاعية وشبه القبلية في العالم النامي ومعظمها لم يتأكد فيه بعد مفهوم الدولة بالمعنى الحديث أو المستنير - تعددت مراكزه وتفرعت خطوطه وتوزعت اتجاهاته .

هكذا انتهت السبعينات وانتهت معها خرافة عقل أليكتروني - « كومبيوتر » - واحد في كل بلد تصدر عنه القرارات . . . بدلا من الـ « كومبيوتر » الواحد في كل بلد عشرة أو عشرون ، وأحيانا مائة « كومبيوتر » مع كل منها برنامج مختلف على أساس معادلات ليس فقط مختلفة وانما أحيانا متناقضة .

□

● ● ● نموذج رابع :

في بداية السبعينات كان واضحا أن عصر العمالقة - في هذه المرحلة من التطور العالمي - قد انتهى .

اختفى ذلك الجيل من الرجال الذين كانت هممهم تتسع لآمال أممهم فتكون أدوارهم تعبيرا عن اراداتها في لحظات حاسمة من التاريخ .

غاب عن الساحة رجال من أمثال « تشرشل » و « ديجول »و « ماوتسي تونج » و « شوين لاي » و « نهرو » و « عبد الناصر » و « خروشوف » والبابا « يوحنا » الثالث والعشرون .

لقد كان لهؤلاء العمالقة دور هائل فيها واجهه العالم من أزمات بعد الحرب العالمية الثانية ، لأن كل واحد منهم استطاع أن يمد تأثيره خارج حدود

ولايته الرسمية أو الدستورية ، وهكذا حركوا قارات وحرروا أمما وأطلقوا تيارات قادرة على فتح طرق واجتياح عقبات .

كان هناك دور تاريخي لهؤلاء العمالقة ، وسيظل هناك دور لأن الطرق كلها لم تفتح بعد والعقبات لم يجر اجتياحها جميعا .

وفي بداية السبعينات كان هناك تفاؤل .

اذا كان العمالقة قد غابوا وانتهى عصرهم ، واذا كانت الحاجة ما زالت قائمة الى رجال فوق العادة · اذن فان النجوم قد تكون بديلا عن العمالقة .

ان النجوم قد تستطيع في غياب العمالقة أن تتخطى الحدود وأن تقفز فوق السدود وأن تصنع شبه المعجزات اذا استعصت المعجزات .

وكان ظهور نجم بازغ كـ « هنري كيسنجر » في بداية السبعينات مؤشرا له دلالته بالنسبة لعصر النجوم .

ليس واحدا من العمالقة الذين استطاعوا تجسيد حركة التاريخ ، لكنه شيء آخر قد يصلح بديلا ولو مؤقتا .

لم يحدث !

مع نهاية السبعينات تأكدت حقيقة أن نجماً شهيراً ليس بالضرورة رجلاً كبيراً ، وأن « السوبرمان » ـ نجم أفلام المغامرات الشهيرة ـ هو قصة هرب مستمر من التاريخ وليس قصة لقاء معه .

ان العمالقة تشارك في صنعهم تجارب انسانية ضخمة ، في حين أن النجوم - في العادة - يشارك في صنعهم فنيون وسائلهم عدسات وميكروفونات وألوان وأصباغ ومؤثرات ضوئية وصوتية .

ولم يكن « هنري كيسنجر » - للانصاف - هو النجم الوحيد الذي جرت محاولة صنعه في السبعينات تعويضا عن غياب العمالقة . لقد رأينا في أواخر السبعينات محاولة من نفس النوع مع بابا روما الجديد « جون بول » الثاني . ما

كاد يخرج من صفوف الكرادلة حتى تلقفته أجهزة تستبد بها شهوة طاغية لصناعة النجوم حاولت أن تبيعه بيعا للدنيا بأسرها على المسيح المخلص يمد يده الى آلام الانسانية وجراحها فيشفى ويحيى .

ومن حسن الحظ أن الشواهد من الفاتيكان توحي بأن البابا الجديد تنبه الى ما جرت محاولته معه ، فأعاد تقييم زيارته الأخيرة للولايات المتحدة على سبيل المثال ، ووجد أن العرش البابوي ليس زجاجة كوكا كولا يعلن عنها بنفس الوسائل وتباع بنفس الطرق !

هكذا فان عصر النجوم - من بريق « هنري كيسنجر » الذي شحب الى محاولة لا بد لها أن تتوقف مع البابا « جون بول » الثاني - لم يستطع أن يكون بديلا لعصر العمالقة ، وبالتالي فان هناك فراغا لم يجر ملؤه حتى الآن .

□

● ● ● نموذج خامس :

في بداية السبعينات كان هناك قبول واسع لفكرة أن طبائع الأزمات العالمية تغيرت . لم تعد بؤر الأزمات كما كانت في حقبات سابقة مواقع جغرافية ، وانما تحولت بؤر الأزمات لكي تصبح قضايا لا علاقة لها بالجغرافيا .

كانت بؤر الأزمات من قبل مواقع مثل « برلين » ومثل « قناة السويس » ومثل الدول المقسمة بالطول أو بالعرض كـ « فيتنام » و « كوريا » و « ألمانيا » . . . وغيرها .

لكن بؤر الأزمات الآن « قضايا » كالطاقة ، والنقد ، والتسلح النووي ، والفقر في جنوب العالم ازاء الغنى في شماله ، والحقوق الانسانية ، وغيرها .

وكان الرأي المقبول على أوسع نطاق هو أن علاج أزمات القضايا قد يكون أسهل بالمؤتمرات الدولية والحوار في اطارها من علاج أزمات الجغرافيا ، لأن أزمات الجغرافيا متصلة في العادة بعنصر السيادة ، والسيادة معنى لا يقبل

التجزئة ، اما أزمات القضايا فانها بالطبيعة قد تقبل منطق التقسيم أو الاقتسام . . . مصالح يمكن أن تكون متبادلة ، ومنافع يمكن حسابها بالأرقام أرصدة مضافة - وان تفاوتت - لكل الأطراف .

وتعددت المؤتمرات الدولية ، وطالت ساعات الحوار :

مؤتمرات للطاقة ، مؤتمرات للنقد ، مؤتمرات بين الشمال والجنوب . . لقاءات حوار في باريس وفيينا ولندن ونيويورك كلها حاولت بمنطق الفارق بين أزمات الجغرافيا وأزمات القضايا . . .

لم يحدث !

فقد أظهرت التجربة العملية في السبعينات أن « أزمات القضايا » أعقد من « أزمات الجغرافيا » .

« أزمات الجغرافيا » تخص أطرافا محددين بالذات ،و « أزمات القضايا » تمس كل أمم الأرض وشعوبها .

وهكذا فانه بدلا من أن تتصادم ارادتان أو ثلاث أو أربع ارادات في أي « أزمة جغرافيا » - وقع التصادم بين مئات الارادات في أي « أزمة قضايا » .

ومع ما اعترى النظام الدولي عند القمة من وهن ، ومع تبدد التصورات عن عالم تتعدد فيه مراكز القوة ، ومع اختلاط وتشابك عناصر القرار حتى في دولة واحدة ، ومع تعقيد « أزمات القضايا » ومع انتهاء عصر العمالقة وتبدد الوهم في قيمة عصر النجوم - مع هذا كله ساد العالم شعور من الحيرة والتخبط والاحباط .

. . . . وأقبلت الثمانينات !

آفاق الثمانينات (٢)

كيف تعالج الأزمات في واشنطن ؟

سألني ونحن جالسان في مكتبه الذي تمتزج فيه الأناقة والعراقة ، ويفوح من كل ركن فيه عبق السلطة والقوة :

- أنت قادم من الولايات المتحدة ، وأعرف أنك قابلت فيها كثيرين ، وأريد أن أسمع منك رأيك في خلاصة ما وجدته هناك !

وقلت له :

- أراك تريد أن تعكس الأدوار . سماعك هو ما جاء بي الى هنا وتقييمك أنت للأمور هو الأولى بهذه الساعة التي اقتطعتها - كريما - من برنامج مشحون .

وقال باسما :

- لا تقلق . . . سوف تسمع مني ، ولكني أريد أن أتعرف على انطباع قادم لتوه من واشنطن ، وبعد ذلك يجيء دوري . لا تخف على الوقت ، نستطيع أن نتجاوز الساعة المحددة لموعدنا اذا اقتضى الأمر .

وقلت :

- الحقيقة أنني عائد من واشنطن بهموم ثقيلة . انني رأيت واشنطن عشرات المرات ، ولكني لم أرها قط في حياتي كما رأيتها هذه المرة . العاصمة التي تقود العالم لا تقود أحدا . . . لا تقود حتى نفسها . انني الآن أشك فيما اذا كانت الولايات المتحدة تعرف ماذا تريد ؟ واذا كانت تعرفه فأنا أشك أنها تملك الارادة أو القدرة على التوجه اليه . ولست على استعداد أن أصدق أنها مشكلة سنة انتخابات رئاسة ، فلقد رأيت واشنطن من قبل في ظروف انتخابات

الرئاسة ولكن الأحوال كانت جد مختلفة . المشكلة هذه المرة أعمق . هناك شيء ما غير طبيعي وغير معقول أصاب الولايات المتحدة . . . أصاب فكرها وأصاب قرارها .

لكي ألخص لك ما رأيته في واشنطن ، فسوف أروي لك قصة أزمة حضرتها وتابعت تفاصيلها بنفسي وناقشت طريقة ادارتها مع بعض القريبين من مركز صنع القرار . أقصد أزمة « اللواء السوفيتي » الذي قيل ان طائرات الاستطلاع الأمريكية اكتشفت مفاجأة وجوده هناك والتقطت صورا لتدريبات كان يقوم بها في سهل يتوسط سلسلة جبال .

الحقائق والتطورات كما عرفتها وتقصيتها هناك كانت كما يلي :

١- ان كل رئيس أمريكي وكل وزير وكل مدير مخابرات كان يعرف خلال السبعة عشر عاما الأخيرة - أي منذ أزمة الصواريخ الشهيرة التي تصادم فيها « جون كنيدي » و « نيكيتا خروشوف » سنة ١٩٦٢ - أن هناك في كوبا أكثر من مجموعة لواء سوفيتي - أربعة آلاف جندي . الواقع أنه كان هناك ما هو أكثر من لوائين - قرابة عشرة آلاف جندي .

وحين حدث ذلك الصدام الشهير بين « كنيدي »و « خروشوف » وانتهى بتراجع « خروشوف » وبانسحاب الصواريخ المتوسطة المدى التي وضعها السوفيت على الجزيرة القريبة قرب مرمى حجر من الشواطىء الامريكية ، فان التركيز كله كان على هذه الصواريخ ، ولم يلتفت أحد الى القوات البرية السوفيتية على أرض الجزيرة ، لأن أحدا لم يتصور أن وجودها هناك يمكن أن يكون مصدر تهديد حقيقي للولايات المتحدة . وكان التقدير أن هذه القوات جماعات تدريب وأنها ليست تشكيلات مقاتلة ، وحتى اذا كانت تشكيلات مقاتلة فان ذلك لا يعطيها أية قيمة عسكرية حقيقية تجعل منها خطرا تخشاه الولايات المتحدة .

« كارتر » - شأنه شأن « فورد » قبله ، و « نيكسون » قبل « فورد » ، و « جونسون » قبل « نيكسون » ، و « كنيدي » نفسه قبل « جونسون » - كان

يعرف بهذا التواجد السوفيتي ، وكانت وسائل الاستطلاع الأمريكية تراجع ما لديها عنه بطريقة دورية .

٢- وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي الأمريكي في الصيف الأخير دارت مناقشة بحضور الرئيس « كارتر » عن مؤتمر الدول غير المنحازة الذي كان مقررا عقده في مطلع شهر سبتمبر في « هافانا » عاصمة « كوبا » . وكانت السياسة الأمريكية قد حاولت أن تثني عدداً كبيرا من الدول غير المنحازة عن حضور اجتماع « هافانا » لأن مثل هذا المؤتمر سوف يقوي مركز « كوبا » الدولي ، فضلا عن أنه سوف يعطي رئاسة مجموعة الدول غير المنحازة للزعيم الكوبي « فيدل كاسترو » خلال السنوات الثلاث القادمة وهو أمر غير مرغوب فيه من وجهة النظر الأمريكية .

وأثناء هذه الجلسة ، وخلال حوار عام فيها عن الأوضاع في كوبا ، اقترح أحد مستشاري الرئيس « كارتر » - أحد مستشاريه في الشئون الداخلية !! - تسريب بعض المعلومات عن التواجد السوفيتي العسكري في كوبا على أساس أن ذلك - قبل انعقاد المؤتمر وفي أجواء انعقاده - من شأنه أن يثير شكوكا حول « جدية عدم انحياز كوبا » وحول جدارتها في أن تكون مقرا لمؤتمر الدول غير المنحازة وأن يكون زعيمها رئيسا لمجموعة هذه الدول لمدة ثلاث سنوات . وفوق ذلك فان اثارة جو من الشكوك يضعف من قوة أي قرارات قد يتخذها المؤتمر وتكون معادية للولايات المتحدة .

ان الرئيس ومستشاريه قبلوا بهذا الاقتراح ، وحين تحفظ بعض المشاركين في الاجتماع خوفا من أن يؤدي تسريب معلومات عن التواجد السوفيتي العسكري في كوبا الى مضاعفات لا شأن لها بكوبا ولا بمؤتمر عدم الانحياز والتأثير على أجوائه . كان الرأي الذي انتهى اليه البحث أن يكون تسريب المعلومات عن غير الطريق الرسمي ، أي أن لا يكون التسريب عن طريق البيت الأبيض أو عن طريق وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع .

وهكذا جرى تسريب بعض المعلومات الى عدد من أعضاء مجلس الشيوخ

وبينهم السناتور « فرانك تشيرش » رئيس لجنة الشئون الخارجية .

٣ - وفي أجواء انتخابات مقبلة لنصف عدد أعضاء مجلس الشيوخ - وبينهم السناتور « فرانك تشيرش » نفسه - تفجرت القصة ربما بأكثر مما قدر لها . اذا كان الرئيس « كارتر » يريد استغلالها لاحراج كوبا و « كاسترو » فما الذي يمنع السناتور « تشيرش » وغيره من استغلالها لمصلحتهم الانتخابية وفي التأثير على ناخبيهم .

هكذا فان السناتور « تشيرش » لم يكتف باعلان ما تلقاه من معلومات فحسب وانما أضاف اليه الكثير من عنده ، وأهمه أنه اذا كان وجود لواء سوفيتي في كوبا قد اكتشف فجأة ، اذن فكيف يكون في استطاعة الولايات المتحدة أن تطمئن الى حسن نوايا الاتحاد السوفيتي في تنفيذ اتفاقية « سولت » - تحديد الاسلحة الاستراتيجية - الثانية ، وما هي فاعلية أية رقابة متبادلة ؟

وثارت ضجة . وتصاعدت الضجة . فقد دخل اليها كثيرون يريدون الظهور بمظهر المتشدد حرصا على أمن الولايات المتحدة وسلامة قدراتها الدفاعية . وانتهى السناتور « تشيرش » الى الاعراب ذات مرة عن يقينه بأن الكونجرس لن يوافق على اتفاقية « سولت » الثانية - وهي حجر الأساس في كل سياسة « كارتر » الخارجية في فترة ولايته الأولى - طالما بقي اللواء السوفيتي المسلح على أرض كوبا .

وبقوة الفعل ورد الفعل ، ورغبة الحكومة أن لا تبدو مفرطة ازاء تشدد الكونجرس ،اضطر « سيروس فانس » وزير الخارجية الى أن يعلن رسميا أن بقاء لواء مسلح سوفيتي على أرض كوبا هو وضع لا تستطيع الولايات المتحدة أن تقبل به .

٤ - ان هذه الضجة كلها في واشنطن لم تحدث أثرها المطلوب ، ولم تحدث في الحقيقة أي أثر في هافانا . وأتذكر أنني اتصلت تليفونيا من نيويورك بأحد رؤساء الوفود المشتركة في مؤتمر هافانا وسألته عن تأثير قصة اللواء المسلح السوفيتي في كوبا على أعمال المؤتمر . وأعترف أنني لم أدهش حين سمعت على

الناحية الأخرى من الخط من هافانا أن الضجيج العالمي في واشنطن لم يصل الى أروقة المؤتمر أو قاعاته ، بل ان « كاسترو » نفسه هو الذي سارع الى بعض رؤساء الوفود - وبينهم الماريشال « تيتو » - ووضع الحقائق كلها تحت تصرفهم ، مضيفا اليها أن الهدف والتوقيت كلاهما مقصود به التأثير على المؤتمر . وأضاف رئيس الوفد الذي كنت أتحدث اليه من نيويورك الى ذلك قوله :

« إن الموضوع قديم » . وحتى اذا كان جديدا ، فكيف تلام كوبا اذا كانت الولايات المتحدة تحتل وتقيم قاعدة عسكرية لها بالقوة على أرض الجزيرة في « جوانتانامو » منذ سبعين سنة ، ثم انها ترفض اخلاءها . اذا كانت الولايات المتحدة حريصة بهذا الشكل على استقلال كوبا وعلى التمكين لعدم انحيازها ، فلقد كان يجب أن تسبق الى الجلاء عن قاعدتها هناك » !

٥ - ان بعض مستشاري الرئيس « كارتر » - مستشاريه للشئون الداخلية أيضا - كان رأيهم أن الموضوع مع ذلك قابل للاستغلال السياسي ، واذا كان هدفه الكوبي لم ينجح ، فان هدفا بديلا ازاء السوفيت يمكن تحقيقه . يطلب من السوفيت سحب هذا اللواء كدليل على حسن نواياهم في اتفاقية « سولت » . وكان تقدير هؤلاء المستشارين - تعزيزا لرأيهم - أن « بريجنيف » حريص على ابرام اتفاقية « سولت » في أواخر أيامه ، فاذا قرر - بدافع من هذا الحرص - أن يسحب لواءه من كوبا ، فان ذلك الانسحاب يمكن أن يكون انتصارا لـ « كارتر » لا يقل عن انتصار « كنيدي » سنة ١٩٦٢ ازاء « خروشوف » ، وهو بالتأكيد أكبر من انتصار « فورد » في حادثة الهجوم على السفينة « ماياجويز » التي كانت تقل مجموعة من الأسرى الأمريكيين في كمبوديا سنة ١٩٧٦ . واذا تحقق مثل هذا الانتصار فان من شأنه - الى جانب تقوية صورة الرئيس - أن يردع بعض الذين يفكرون في تحديه في الانتخابات القادمة ، خصوصا داخل حزبه وفي مقدمتهم « ادوارد كنيدي » .

وهكذا دخل الرئيس في جو الأزمة بنفسه ، وأضيئت الأنوار الحمراء تعبيرا عن الانشغال الشديد ورمزا لحالة الخطر .

واستدعي السفير السوفيتي « أناتولي دوبرينين » على عجل الى واشنطن ، والتقى به « فانس » أكثر من مرة ، ونشط الخط الساخن بين واشنطن وموسكو ، واتضح أن « بريجنيف » ليس على استعداد للتراجع ، بل انه هو الذي أصبح يعتبر الموضوع كله الآن دليلا على قدرة الرئيس الأمريكي أو عجزه عن مواصلة سياسة الوفاق .

٦ - أتذكر أنني في هذا الجو لقيت أحد مستشاري الرئيس « كارتر » وأبديت له اقتناعي بأن الأزمة كلها مفتعلة ، وبأنها نموذج للتداخل الخطر بين الألعاب الانتخابية وبين العلاقات الدولية على مستوى يمس أمن الولايات المتحدة نفسه ، وكان رأيه مختلفا عن رأيي ، ولقد أدهشني قوله لي :

- ان المسألة ليست الخطر العسكري الذي يمثله وجود لواء مسلح سوفيتي ، ولكنها مسألة الهيبة السياسية للولايات المتحدة !

ان الحقائق ما لبثت أن أكدت وفرضت نفسها على الكل ، واصبح محتما على الرئيس الأمريكي أن يتراجع في موقفه . ولتغطية التراجع فانه دعا الى اجتماع في كامب دافيد حضره جمع من « الحكماء » - كما أسموهم - وكانت نصيحتهم جميعا أنه لا سبيل الى التصعيد لأنه خطر ولا مبرر حقيقيا له ، وأن القضية الآن هي قضية تغطية « هيبة » الرئيس .

وكانت التغطية :

أمر من الرئيس الى القوات الأمريكية باجراء مناورات بحرية وبرية كبرى قرب شواطىء كوبا ، الى جانب تعزيز القوات الأمريكية في قاعدة « جوانتانامو » .

ثم اضافة عشرة آلاف مليون دولار الى ميزانية التسليح الأمريكية الجديدة .

وانتهت القصة ! *

---

* تكاد قصة سان سلفادور في ربيع عام ١٩٨١ أن تكون تكرارا على نحو أو آخر لقصة كوبا في خريف عام ١٩٧٩ !!

قلت لمحدثي :

- انني آسف أن أطلت عليك بما قلت ، ولم أضف الى معلوماتك جديدا عنه ، لكني اعتبرت هذه القصة رمزاً للحالة التي وجدتها في واشنطن هذه المرة :

مناورات بدون سياسات ، وخلط في الأولويات ، وتخبط وتردد ، وألعاب قمار - لا أرى مبررا لها - على حساب الأمن القومي ذاته أحيانا وعلى حساب دافع الضرائب الأمريكي في أحيان أخرى .

بأي حساب لا يمكن أن تكون الولايات المتحدة قد ربحت شيئا من كل ما جرى ، بالعكس خسرت كثيرا .

عملية دعائية خائبة ضد كوبا و « كاسترو » . . . سهم طاش في الفضاء ، لكن تكاليفه كانت باهظة :

تعطيل اتفاقية « سولت » الثانية ، اساءة العلاقات مع الاتحاد السوفيتي وتشكيكه في سلامة القرار الأمريكي بل في سلامة التفكير الأمريكي ، ودرجة أخرى على سلم تسابق السلاح ثمنها عشرة آلاف مليون دولار . . . فضلا عم أصاب « هيبة » الرئيس و « هيبة » الدولة في الولايات المتحدة .

ماذا جرى لهم ؟

لاأعرف .

وختمت قائلا :

- هذا ما عندي من واشنطن . . . هذا نموذج مما وجدته هناك . . . والآن جاء دوري لكي أسمعك » .

□ □ □

كان « هو » ينصت اليّ باهتمام ، أو هكذا بدا لي . كان مستنداً بظهره على قائمة كرسيه الوثير الضخم وراء مكتبه ، يجذب بين وقت وآخر رشفة من دخان سيجار معطر بين أصابعه .

وحين فرغت مما كنت أتحدث فيه ، وحان دوره للكلام ، اعتدل مقتربا بصدره مستندا بساعديه على حافة مكتبه وقال :

- أظنني لا أختلف كثيرا معك في دلالة حكاية اللواء السوفيتي في كوبا . . . ربما كنت أختلف معك في نقطة واحدة . انك رأيت القصة كلها منذ البداية الى النهاية في اطار أنها مناورة مقصودة ومرتبة . . . أخشى أن أقول لك أنه كان فيها من « خطأ التقديرات » أكثر مما كان فيها من « قصد المناورة » ، لكن النتيجة في الحالتين واحدة .

ان هناك « حالة غريبة » الآن في الولايات المتحدة . لو كانت هذه « الحالة » في أي بلد غير الولايات المتحدة لهانت المشكلة . لكنها في الولايات المتحدة مسألة خطيرة .

الولايات المتحدة - لا أظنني في حاجة الى أن أؤكد لك - هي قيادة العالم الحر كله . . . دعني أقول على الأقل إنها قيادة العالم الغربي كله .

واذا أصابتها لفحة برد تحولت عندنا جميعا الى التهاب رئوي . ليست هذه مبالغة ، وليست أيضا تبعية للولايات المتحدة . لا أحد يستطيع أن يجادل في أن القوة الأمريكية _ القوة الاقتصادية والقوة العسكرية - هي ضماننا الوحيد .

أقول لك ذلك وفي مقابله أقول على الفور إننا في حيرة شديدة ازاء الحالة الأمريكية » .

تستطيع أن تتصور بالطبع أن هذه الحالة تشغلنا . . . بل هي شاغلنا الكبير .

اننا نسأل أنفسنا ونسأل بعضنا طول الوقت : « ماذا يحدث في واشنطن ؟ » ، والجواب بالنسبة لنا ليس قضية معرفة فحسب وانما هو قضية مستقبل .

سوف أقول لك شيئا

هذا السؤال الذي سألته في مطلع لقائنا ، وجهته من قبل لعدد كبير من

أصدقائنا الذين يزورون واشنطن . قبلك على سبيل المثال وجهته لـ « هيلموت شميت » - مستشار ألمانيا الغربية

هل تعرف ماذا قال لي « شميت » ؟

قال لي بدهشة واستغراب لم يكن في مقدوره حجب آثارهما عن ملامح وجهه - قال لي :

- إنك تسألني عن الأحوال في واشنطن ، وجوابي أنني لا أعرف ، والكارثة أنني احس أنهم هم أيضا لا يعرفون !

في الماضي حين كنت أذهب الى الولايات المتحدة كان يلزمني أن أرى مجموعة من الأفراد لا يزيد عددهم عن عشرة ، ثم أغادر واشنطن واثقا من أنني أعرف كل شيء . . . على الأقل أعرف ما أريد أن أعرفه . . . أو ما يكفي لأن أعرفه .

كنت أذهب لاجتماع في مجلس العلاقات الخارجية ، ثم كنت التقي مع رئيس لجنة الشئون الخارجية في مجلس الشيوخ ، ثم أقابل « جورج ميني » رئيس اتحاد نقابات العمال . . . كل هؤلاء من خارج الادارة ، فاذا أضفت اليهم من داخل الادارة وزير الخزانة ووزير الدفاع ، وربما مدير المخابرات المركزية ، اتضحت الصورة .

كنت أنتهي في العادة بمستشار الرئيس للأمن القومي ، ثم يجيء موعدي مع الرئيس نفسه في البيت الأبيض ، وأخرج من عنده واثقا أنني - بعد هذه الجولة كلها - أعرف .

يومان في واشنطن كان فيهما الكفاية . . . يومان وعشرة أشخاص لا أكثر .

هذه المرة اختلف الأمر .

قابلت كل هؤلاء . . . بمن فيهم الرئيس ، وخرجت متأهبا للعودة الى

بون ، لكن احساسا من القلق كان يراودني . . . هناك شيء ما معلق بأفكاري . . سرعان ما اكتشفته . . .

ان لقاءاتي مع العشرة لم تضف الى معلوماتي زيادة عما كنت أعرفه من مجرد قراءة الـ « نيويورك تيمس » .

ليست هناك اضافة من أي نوع .

أليس هذا غريبا ؟ !

دعني أنقلك الى زائر آخر لواشنطن سألته أيضا عما وجده . سألت « مارجريت تاتشر » رئيسة وزراء بريطانيا الجديدة . قاطعة هي في تعبيراتها وليست لها رقة « هيلموت شميت » ولا حساسيته في التعبير عن مشاعره .

قالت لي « مارجريت تاتشر » :

- أحوالهم لا تعجبني في واشنطن . القوة في أيديهم ضعف !

ثم أضافت بقسوة :

- اني لقيت كثيرين في واشنطن . . . خيل لي وأنا أسمع بعضهم أنهم من نوع هؤلاء الذين يستيقظون في الصباح فيجدون الفراش تحتهم مبلولا !*

هل أروي لك واقعة أخرى ؟

جاءني السفير السوفيتي برسالة من الكرملين يسألوننا فيها النصيحة عن أسلوب التعامل مع واشنطن في « حالتها » الراهنة .

قالوا لنا إنهم يشعرون يوما بعد يوم بصعوبة التعامل مع واشنطن . في الماضي كانوا يتصورون أنهم يعرفون قواعد اللعبة الدولية ازاء القوة العظمى الثانية ، وأنهم يعرفون كيف يتعاملون مع هذه القواعد ، ويصلون الى نتائج لصالح الطرفين ولصالح السلام في العالم .

---

* ذهبت « مارجريت تاتشر » في أواخر فبراير ١٩٨١ الى واشنطن لأول لقاء مع « رونالد ريجان » وعادت تمدحه ، وربما اكتشفت أنه يغادر فراشه في الصباح ويتركه جافا غير مبلل !!

كانت فترة القلق في العلاقات بين الطرفين بعد الحرب العالمية الثانية هي فترات رئاسة « ترومان » - حدة الحرب الباردة - وفترات رئاسة « جونسون » - حدة حرب فيتنام والشرق الأوسط سنة ١٩٦٧

أما في عهود « أيزنهاور » و « كنيدي » و « نيكسون » « فورد » فان قواعد اللعبة كانت مستقرة رغم كل الأزمات .

حتى في عصر « ترومان » و « جونسون » كانت الحدود مفهومة رغم الخطر .

كان « كيسنجر » هو آخر من تعاملوا معه وهم يعرفون أين هو وأين هم .

وأما الآن فان كل شيء معلق في الهواء .

كانوا متفائلين في بداية عهد « كارتر » لكن تفاؤلهم تبدد رغم أن مسار العلاقات بين الطرفين في عهده لم يتعرض لأزمات عنيفة .

لقد حاولوا بكل سبيل مواصلة سياسة الوفاق وهم يشعرون في أعماقهم أن « كارتر » لم يعدل عن هذه السياسة ، بل ان حقائق القوة في العالم لا تجعله يفكر في العدول ، ومع ذلك فانهم كما يقولون « لا يعرفون لأنفسهم معه رأسا من قدم .

● في مفاوضات « سولت » مثلا : أحسوا أنهم لا يواجهون رأيا أمريكيا واحدا يمثله مفاوض واحد على المائدة في واشنطن جنيف أو موسكو ، وانما هم يواجهون آراء متضاربة لم تتبلور بعد في موقف .

● في الشرق الأوسط : تصوروا أنهم وصلوا الى تفاهم بالبيان المشترك في أول أكتوبر سنة ١٩٧٧ ، لكن هذا البيان لم يعش أكثر من أربع وعشرين ساعة ، ثم بطل مفعوله بعد لقاء بين « كارتر » و « ديان » .

● في أثناء مفاوضات « سولت » ، وفي الفترة الحاسمة منها ، فوجئوا بالولايات المتحدة تلعب ما أسماه « برجينسكي » بكارت الصين . إن الاتحاد

السوفيتي لا يمانع في قيام علاقات طبيعية بين واشنطن وبكين . لكن (كارت الصين) كما حاول « برجينسكي » أن يلعبه كان شيئا آخر .

● بعد أن انتهوا من المفاوضات على اتفاقية « سولت » الثانية ، وبعد أن تم توقيع مشروع الاتفاقية بين « بريجنيف » و « كارتر » في فيينا ، فوجئوا بالسناتور « بيرد » زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ يزور موسكو ليفاوض من جديد في الاتفاقية .

● استبدت بهم الدهشة بعد ذلك حين تفجرت على غير انتظار قصة اللواء السوفيتي في كوبا وعطلت التصديق على اتفاقية « سولت » ، ثم وجدوا أن أعقد القضايا المتعلقة بأمن العالم تتحول الى نوع من الألعاب النارية في معركة انتخابات الرئاسة التي بدأت هذه المرة قبل أوانها .

□ □ □

كان « هو » مازال يواصل حديثه :

- نحن أيضا لا نعرف ، ليسوا هم في موسكو فقط - وهم الخصوم - الذين لا يعرفون ، نحن هنا - ونحن الاصدقاء - لا نعرف أيضا .

سوف أعطيك مثالا قريبا .

كان « هنري كيسنجر » عندنا هنا جالسا على نفس هذا المقعد الذي تجلس عليه الآن ، وقلت له أثناء لقائنا :

- هنري . . . انني اطلعت على تفاصيل الآراء التي عرضتها في « اجتماع الخبراء » الذي نظمته قيادة حلف الأطلنطي أخيرا في بروكسل ، وأريد أن أذكرك - اذا كنت نسيت - بحقائق التاريخ .

هل تتذكر خلافكم في الولايات المتحدة مع الجنرال « ديجول » حينما قرر أن ينشىء لفرنسا قوة نووية ضاربة مستقلة ؟ كنتم تعارضون سياسته تلك .

كان رأي « ديجول » وقتها أن طبيعة الحرب النووية لا تسمح لأي طرف في

العالم أن يعتمد على غيره في حماية نفسه ، وانما لا بد أن يكون لديه رادع نووي مقابل يتحرك بلمسة على زر من أصابعه هو وليس من أصابع رئيس امريكي في البيت الأبيض .

الحرب النووية ، بالصواريخ بعيدة المدى ، تجعل الولايات المتحدة ذاتها ولأول مرة في تاريخها مسرح عمليات .

في الحرب العالمية الأولى وفي الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة طرفا في الحرب ولم تكن مسرحا لها بسبب طبيعة الأسلحة ومداها المحدود وقدرتها على التدمير .

أما هذه المرة - اذا قامت لا سمح الله حرب عالمية ثالثة وكانت نووية ، وهي لا يمكن الا أن تكون نووية - فمعنى ذلك أن الولايات المتحدة : أراضيها ومواردها وشعبها في وطنه معرض ومكشوف .

كان رأي « ديجول » أنه اذا تعرضت أوروبا للخطر فان أي رئيس أمريكي سوف يتردد مائة مرة قبل أن يستعمل الرادع النووي .

انه سوف يستعمل الرادع النووي اذا تعرضت نيويورك أو واشنطن أو شيكاجو أو لوس انجلوس أو سان فرانسيسكو للخطر ، لكنه لن يعرض نيويورك وواشنطن الى آخره للخطر من أجل زرقة عيون باريس ولندن وبون وروما الى آخره .

لهذا كان « ديجول » يؤمن بأنه لا حماية لأوروبا غير قوة ردع أوروبية .

كنتم تعارضون « ديجول » في هذا الرأي وأثرتم الدنيا عليه ، بل وحاولتم تصوير سياسته وكأنها نوع من جنون العظمة الفرنسية وكان رأيكم أن أوروبا تستطيع أن تنام مطمئنة الى حماية المظلة الأمريكية النووية .

انك في بروكسل أخيرا وجهت الى أوروبا تحذيرا بأنها لا تستطيع الاعتماد على المظلة النووية الأمريكية لأن أي رئيس أمريكي لا يستطيع أن يعرض المدن

الكبرى في الولايات المتحدة لخطر الضرب النووي من أجل خاطر مدن أوروبا مهما كان فيها من تراث التاريخ والانسانية .

أليس هذا ما كان يقوله « ديجول » ؟

ما الذي دعاكم فجأة الى تغيير آرائكم ؟ !

□ □ □

كان « هو » ما زال يواصل حديثه :

- هل تستطيع أن تفسر لي هذا الذي فعلوه بأزمة الشرق الأوسط ؟

اننا نرى المنطقة كلها تدفع دفعا - على عكس مصالح شعوبها ، بل على عكس مصالح الولايات المتحدة ذاتها - الى مرحلة من اختلال التوازن نراها بالغة الخطورة .

اننا تحدثنا كثيرا مع أصدقائنا من الولايات المتحدة في هذه المخاطر . وصلنا الى حد أننا قلنا لهم : نحن على استعداد للتسليم بأن اتفاقيات كامب دافيد - مهما كان رأينا فيها - حقيقة واقعة ، ولكنها في أحسن الأحوال مجرد بداية ، فاذا لم تلحق بها خطوات جادة تعطي الفلسطينيين شيئاً . . . تعطيهم أملا ، فان الشرق الأوسط كله سوف يصبح مجرد لغم موقوت . . . لا تخدعنكم حالة الضياع السائدة فيها الآن . . . وراء هذا الضياع العاجز دقات ساعة تقترب عقاربها من لحظة انفجار رهيب . الغريب أنهم لم يختلفوا معنا في التشخيص ، وانما كان تبريرهم لعجزهم عن التقدم خطوة بعد اتفاقيات كامب دافيد هو « أن السادات وبيجين أخذا الموقف كله في أيديهما ، وراحا يتصرفان بطريقة ثنائية وينسقان خطواتهما المقبلة في معزل عنا . . . بل انهما أحيانا يخفيان عنا وكأننا موثق عقود انتهت مهمته بالتوقيع* !

لا أعتقد أنهم يكذبون علينا أو يقصدون خداعنا ، لكن ذلك وجها من وجوه « الحالة » السائدة في واشنطن الآن .

علينا جميعا أن نحاول فهم هذه « الحالة » في واشنطن . . . هناك أسباب

---

* تغيرت الصورة بعد ذلك حين وصل السادات وبيغن كلاهما إلى نهاية طريق

طويلة ومعقدة ، لكن من الضروري بالنسبة لنا أن نبذل جهدا في الفهم ، فالمسألة أخطر من أن نتركها لأحكام عابرة أو مسبقة ، سواء كان مصدرها تقدير زائد لقوة الولايات المتحدة أو سوء ظن زائد بحماقة هذه القوة .

أنا أختلف معك .

أنا ما زلت أعتقد أن هناك كثيرا من « الارادة الطيبة » good will لدى كارتر ، وربما كانت المشكلة أن هناك لدى كارتر كثيرا من « الطيبة » وقليلا من « الارادة » !

□ □ □

انني حتى هذه اللحظة لم أفصح عن شخص هذا الذي يحدثني وأحدثه .

لقد اكتفيت بالاشارة اليه بـ « هو » ولم أزد .

ولقد كنت بين اعتبارين .

أن أحدد من « هو » ثم أجد نفسي للأمانة مرغما على اختصار ثلاثة أرباع حديثه بصراحة .

أو أترك حديثه « بصراحة » دون أن أحدد من هو .

ولقد وازنت .

واخترت تجهيل الاسم على تجهيل الكلام ، ويبقى أن قراءة متأنية للحديث كله قادرة على توجيه ومضة ضوء الى شخصية صاحبه !

آفاق الثمانينات (٣)

عصر السياسة بالصور كيف يمكن أن نتعامل معه ؟

لقد شهدت السبعينات من هذا القرن انقلابا كاملا في مواقع القوة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي الدولة التي تؤثر أكثر من غيرها في أحوال وأوضاع عالمنا المعاصر . وسوف تشهد الثمانينات - أغلب الظن ، وما لم تحدث مفاجآت - عواقب هذا الانقلاب الكامل ونتائجه .

ولو أردنا أن نتقصى الحقيقة في أمر هذا الانقلاب الكامل - وعواقبه ونتائجه - فربما كان مناسبا أن نبدأ بدراسة صورة واحدة من صور هذه الحقيقة تبدو حية أمامنا الآن - ناطقة وبالألوان - في ساحة معركة انتخابات الرئاسة الأمريكية التي بدأت قبل أوانها في هذا الخريف رغم أن يوم الانتخابات ما زال بعيدا عنا بمقدار سنة بطولها على الأقل !

وإذا فكرنا بصوت عال ، وكان تفكيرنا على شكل حوار بيننا وبين أنفسنا :

- ما الذي نراه أمامنا في ساحة معركة انتخابات الرئاسة الأمريكية ؟

لجاء الجواب :

- أبرز الظواهر في هذه المعركة أن ادوارد كنيدي -« تيدي » - يتحدى جيمس كارتر -« جيمي » - على ترشيح الحزب الديمقراطي لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية .

ونتساءل :

- ولم لا ؟ وأي غرابة في ذلك ؟

والجواب :

- وجه الغرابة أن « كارتر » ليس رئيس الولايات المتحدة فحسب وانما هو أيضا رئيس الحزب الديمقراطي . وفوق ذلك فان « كارتر » له الحق أن يرشح نفسه لمدة رئاسة ثانية بنص الدستور الأمريكي ، ومن المنطقي أن يكون هو مرشح حزبه في انتخابات الرئاسة القادمة ، فالهدف الطبيعي لأي حزب أن يصل الى السلطة لتنفيذ برامجه ، وليس هناك مرشح أقوى من رئيس يجلس في البيت الأبيض فعلا .

ومعنى ذلك أن « تيدي كنيدي » حين يرشح نفسه للرئاسة يفعل ذلك من خارج الحزب وخروجا عليه ، فهو يريد أن يفرض نفسه من الخارج فوق المؤسسة .. ليس بارادتها ولكن بالرغم من ارادتها .

وقد نتساءل مرة أخرى :

- ربما ناداه ضميره أن يخوض حربا صليبية ينقذ بها الحزب من « كارتر » ، ومن نفسه ، وحتى يعطي الاثنين - الرئاسة والحزب - شيئا ضاع منهما ، وهو « أهلية القيادة » - كما يقول - أليس ذلك ما يقول ؟

والجواب مرة أخرى :

- المشكلة أن ذلك غير صحيح ، على الأقل لا دليل عليه ، في حين تشير كل الأدلة الى عكسه .

سجل « تيدي كنيدي » الثابت حتى الأن لا يعطيه « أهلية للقيادة » ليست لدى « كارتر » .

سجل « تيدي كنيدي » الثابت يحتوي حتى الآن على ثلاث وقائع تكفي كل واحدة منها لكي تنسف فرصة أي رجل في تولي أي منصب ، فضلا عن أن يكون هذا المنصب هو رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية .

الواقعة الأولى : حادثة غش في امتحانات كلية الحقوق في هارفارد طرد بسببها سنة من الجامعة .

والواقعة الثانية : محاولة هرب من البوليس في حادثة مخالفة سرعة على طريق عام ، ولم تنجح المحاولة ، وحوصرت سيارة « تيدي » في النهاية عند طريق مسدود وقبض عليه مختبئا في قاع السيارة .

والواقعة الثالثة : وهي أكبر من حادثة وأخطر من مخالفة ، بل أكثر من فضيحة ، وإن كان ذلك هو الاسم الذي لصق بها فعرفت بفضيحة « تشاباكوديك » ، وملخصها أن « تيدي » خرج لسهرة مع احدى سكرتيراته بعد ليلة شراب ،وكان هو الذي يقود السيارة ، وانزلق بها على جسر الى بركة ماء غاصت فيها السيارة . لكنه نجا بنفسه وسبح الى الشاطىء وترك رفيقته المسكينة تلاقي أقدارها غرقا . وأسوأ من ذلك فانه لم يبلغ البوليس الا في الصباح ، وبعد أن التف حوله محاموه ولم يجد ما يدافع به عن نفسه ازاء تهمة القتل بسبب الخطأ أو الاهمال الجسيم غير أن يقف أمام المحققين ليقول : « لقد أصبت بحالة ذعر . . . لقد كنت منهاراً ».

هذا من ناحية السجل الخاص ، اضافة الى ذلك فان علاقته بزوجته متوترة ، والتوتر ينعكس عليها ـ ومن آثاره أنها لزمت المستشفى شهورا تعالج من ادمان على الشراب لا تستطيع مقاومته .

وأما من ناحية السجل العام فان وثائق الكونجرس لا تعطيه - بوصفه عضو مجلس الشيوخ عن دائرة « ماساشوسيتس » - أية ميزة خاصة ، فقد كان صوته في كل تشريع عرض على المجلس متسقا تماما مع سياسات كارتر الذي يتحداه الآن .

وقد نتساءل مرة أخيرة :

- والآن ماذا ؟ ما هو الأساس الذي يقوم عليه تحديه لـ « كارتر » ؟ وما هو التفسير لواقع أن استفتاءات شعبية المرشحين تعطيه - تعطي « تيدي » - أسبقية على « كارتر » تكاد تصل الى الضعف ؟

والجواب أخيرا :

- ذلك بالفعل صحيح : « تيدي » يتحدى « جيمي » بنجاح ساحق ، وبالفعل فان كل الاستفتاءات تشير الى أن المرشح الخارج على الحزب يسبق رئيس الحزب وحزب الرئيس بمسافة شاسعة :هي اثنان إلى واحد تقريبا !

والسبب شيء لا علاقة له بالسجلات الخاصة أو العامة . . . لا علاقة له بالشخص والقضايا .

شيء آخر :

صورته أحسن في تصورات الرأي العام الأمريكي .
الهالة التي تحيط بهذه الصورة أكثر توهجا وبريقا .

هو جزء من أسطورة تسللت واستقرت واستحكمت في خيال ملايين الأمريكيين عن أسرة كنيدي وعن أبطالها المأساويين .

أسطورة صنعتها وسائل الاعلام ، وفي مقدمتها التليفزيون ، في عصر أصبح العمل السياسي فيه : « سياسة بالالكترونات » في تعبير - أو سياسة عن طريق « خلق انطباع قبل توليد اقتناع » في تعبير آخر !

□ □ □

ان تأثير وسائل الاعلام ، وفي مقدمتها التليفزيون ، هو الذي أحدث ذلك الانقلاب الكامل في مواقع القوة في الولايات المتحدة الأمريكية خلال السبعينات ، وهو نفسه الذي سيحكم الثمانينات خصوصا في هذه الدولة التي تؤثر أكثر من غيرها في أحوال وأوضاع عالمنا المعاصر .

ان ذلك الانقلاب الذي اكتمل في السبعينات كانت له مقدماته قبل ذلك في الخمسينات والستينات ، وأظنني كنت واحدا من الذين شهدوا المقدمات في الخمسينات . ولقد بدت لي المقدمات وقتها شيئا غريبا ، ولكنه لم يخطر بخيالي ولا بخيال غيري أن ما رأيناه وقتها سوف يصل بنتائجه الى ما نراه اليوم .

في بداية الخمسينات - خريف سنة ١٩٥٢ - أتاحت لي الظروف أن أتابع

معركة انتخابات الرئاسة الأمريكية ، وكانت تجري بين « دوايت أيزنهاور » مرشحا عن الحزب الجمهوري ، و « أدلاي ستيفنسون » مرشحا عن الحزب الديمقراطي .

كانت « السياسة بالالكترونات » في طفولتها الباكرة بعد ، لكن الشواهد كانت هناك .

وعلى سبيل المثال ، كان هناك تيار عام حول الحزب الديمقراطي يرى أن يرشح للرئاسة عضوا في مجلس الشيوخ وقتها ، هو السناتور « استس كيفوفر » على أساس أن اسمه أصبح معروفا ووجهه أصبح مألوفا نتيجة لرئاسته للجنة تحقيق عن الجريمة المنظمة ، ولكن قيادة الحزب الديمقراطي حسمت بسرعة وقررت أن ترشيح « ستيفنسون » - وهو السياسي المقتدر الذي برزت كفاءاته كحاكم لولاية الينوى - أجدر بالحزب وأولى - وهكذا كان .

وفي مقابل ذلك فان قيادة الحزب الجمهوري كانت تتجه الى ترشيح « روبرت تافت » زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ وسليل واحدة من أعرق الأسر السياسية في الولايات المتحدة ، ولكن تيارا عاما من حول الحزب راح ينادي بترشيح « دوايت أيزنهاور » الجنرال الذي قاد جيوش الحلفاء في اعادة تحرير أوروبا وهزيمة ألمانيا الهتلرية . وكان رأي هذا التيار أن الحزب الذي طال ابتعاده عن السلطة عشرين سنة - ١٩٣٢ الى ١٩٥٢ - لا بد له من وجه شعبي يستطيع أن يخترق كل ما صنعه الديمقراطيون في عصر « روزفلت » و « ترومان » طوال عشرين سنة . ورضخت قيادة الحزب وأعلن ترشيح الجنرال « أيزنهاور » .

□

أتذكر أول يوم صعدت فيه الى القطار الانتخابي لـ « أيزنهاور » ، وكانت العادة أيامها - من بقايا عصر ازدهار السكك الحديدية في أمريكا - أن كل مرشح للانتخابات يستأجر قطارا خاصا يطوف به أرجاء تلك البلاد الشاسعة ويعبر ولاياتها واحدة بعد الأخرى ، وكانت مؤخرة القطار تجهز لتكون شبه

منصة خطابة يظهر فيها المرشح في كل محطة حيث يتجمع لسماعه مئات أو آلاف من الناخبين يرونه رأي العين ويسمعونه بآذانهم .

كان القطار أشبه ما يكون بمقر قيادة على عجل ينزلق بسرعة على قضبان لا نهاية لها . كانت هناك عربة تحولت الى جناح نوم للمرشح ، وعربة تحولت الى مكتب له ، وعربة تحولت الى قاعة اجتماعات ، وعربة تحولت الى مكاتب لمساعديه ، وأخيرا قرب نهاية القطار ثلاث عربات لوسائل الاعلام : الصحافة الأمريكية والصحافة الأجنبية ثم صحافة الالكترونات - الاذاعة والتليفزيون .

وأتذكر أنني صدمت صدمة عنيفة في أول يوم لي على قطار « أيزنهاور » .

كان طريقه الى منصة الخطابة في نهاية القطار يمر بعربة المراسلين الأجانب التي كنت فيها ، وهكذا عبر من وسطنا ونحن نقترب من أول محطة بعد نقطة القيام مباشرة - وتطلعت اليه وأصبت بشبه ذهول .

كنت قد حضرت عدة مؤتمرات صحفية له قبل ذلك بعدة سنوات في باريس حين كان قائدا لقوات الحلفاء في أوروبا ، ولكنه هذه المرة كان على حال غير ما عرفته عليه في باريس . هذه المرة فوجئت بأن وجهه كله مغطى بأصباغ الماكياج . . . شفتاه عليهما مسحة من أحمر الشفاه . . . حواجبه جرى عليهما قلم داكن . . . صلعة رأسه مغطاة بمسحوق خاص يطفىء بريقها حتى لا ينعكس عليها وهج لمبات التصوير القوية للتليفزيون .

ولم أستمع الى شيء مما قاله لنا وهو يعبر طريقه من وسطنا الى مؤخرة القطار ، فقد كنت ما زلت مأخوذا بما رأيت ، وسبقني لورد « بيفر بروك » - أحد أباطرة الصحافة البريطانية - وكان معنا في عربة الصحفيين الأجانب على قطار « أيزنهاور » ليوم واحد من باب الفضول - الى التعبير عما كنت أشعر به ، فقد التفت اليّ وكنت بجانبه ليقول :

-ما هذا الذي فعله بنفسه أو فعلوه به . . . انهم حولوا قائدا عسكريا من الدرجة الأولى الى ممثل من الدرجة الثالثة !

لكن « أيزنهاور » نجح في حين فشل « ادلاي ستيفنسون » وكان هو - للأمانة والحق - أفضل الاثنين . وقيل وقتها - وأثبتت الأيام صحة القول - أن « ستيفـــون » لم يفهم الأساليب الجديدة في الاعلام وفي مقدمتها التليفزيون ، وبالتالي فان « صورته العامة » لم تصل ، في حين وصلت الى الناس صورة « أيزنهاور » الذي استوعب وفهم نتيجة لخبرته كقائد عسكري مستعد دائما أن يجرب أسلحة جديدة !

□ □ □

في الستينات كانت الاسلحة الجديدة تثبت قدرتها وتؤكدها يوما بعد يوم .

وكان « جون كنيدي » هو أول « رئيس الكتروني » في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية .

كان « صورة مشوقة » جاهزة بكل المواصفات : شباب يتدفق بالحيوية ، تتعلق به زوجة تتفجر بالفتنة ، ومن حولها كوكبة من المثقفين والمفكرين والفنانين والصحفيين والمعلقين ، وأهم من ذلك نجوم قنوات التليفزيون الثلاث الكبرى في الولايات المتحدة . ومن وراء ذلك كله أموال « جوزيف كنيدي » والده المليونير العجوز والطموح الذي يريد أن يرى ابنه سيدا في البيت الأبيض سواء رضي أساطين الحزب الديمقراطي أو أبوا .

وفاز « كنيدي » بالترشيح . . . وفاز « كنيدي » بالرئاسة . ولم يكن عهده عهد انجازات كبرى في الولايات المتحدة بقدر ما كان عهدا يفوح منه عطر الأناقة والشهرة . . . أرضه من تراب النجوم ، وسماؤه تسطع بأقمار مضيئة !

ثم جاءت مأساة اغتيال « كنيدي » .

واذا عدسات التليفزيون على كل تفصيل وكل لمحة وكل خلجة .

كانت صور الأرملة الجميلة في السواد ، والأطفال الصغار في اليتم ، وموكب الجنازةالحزين ، والشعلة التي لا تنطفىء في مقبرة الأبطال في آرلنجتون كلها خيوطا في نسج أسطورة .

كانت الاسلحة الجديدة تثبت قدرتها على الخلق .

في الستينات ، وفي أيام « ليندون جونسون » أثبتت الاسلحة الجديدة قدرتها على الفتك .

كان التليفزيون - قبل غيره من الوسائل الجديدة - هو الذي أسقط « ليندون جونسون » الذي كان في سجل الحقائق - وبصرف النظر عن الأساطير - واحدا من أقوى الرؤساء الأمريكيين في القرن العشرين ، ومن أكثرهم اسهاما في تطوير المجتمع الأمريكي بالتشريع .

لكن حرب فيتنام كانت مقتله .

الحرب في حد ذاتها لم تكن المشكلة ، ولكن المشكلة أن التليفزيون لم ينقل فقط فظائع الحرب وانما نقل أيضا استحالة النصر فيها ، الى كل بيت أمريكي . . . بل الى كل حجرة نوم في الولايات المتحدة ، وأصيب التفكير الأمريكي بالأرق . . . ثم تحول أرق الليل الى غضب نهار وانفجرت الثورة على الحرب ، واستطاع صمود الشعب الفيتنامي أن يعطيها وقودا لا يهدأ ولا يخمد .

وسقط « ليندون جونسون » كشجرة « سنديان » هائلة تآكلت عند الجذور ، فاذا هي على الأرض عظة وعبرة لمن يتعظ أو يعتبر .

« السياسة بالالكترونات » تثبت قدرتها وتؤكدها .

رأي عام يتحرك خارج المؤسسات يفرض على البيت الأبيض ، ويفرض على الأحزاب ، ويفرض على الكونجرس .

مركز جديد من مراكز القوة ينشأ بطريق غير مسبوقة في التاريخ .

مركز لا تحكمه بؤرة واحدة ، ولا يؤثر فيه تيار واحد .

سلطة لا تخضع لحساب ، ولا تقبل قانونا غير قانونها الذي يشدها دواما الى « الصور » الأكثر تأثيرا والأشد تعبئة من كل عناصر الدراما .

□ □ □

كان المسرح في السبعينات مهيأ لمواجهة كبرى .

في بداية السبعينات نجح « ريتشارد نيكسون » ، ودخل البيت الأبيض اخيرا رئيسا للولايات المتحدة ، لكن « نيكسون » لم ينجح الا بعد أن وعى درس « السياسة بالالكترونات » .

كان « نيكسون » قد خسر معركته ضد « كنيدي » في انتخابات رئاسة سنة ١٩٦٠ أمام عدسات التليفزيون التي نظمت ثلاثة لقاءات بالمواجهة بينه وبين « كنيدي » .

أتذكر أنني رأيت احدى هذه المناقشات على شاشة التليفزيون في واشنطن سنة ١٩٦٠ .

رأيتها مع « جمال عبد الناصر » وفي غرفة نومه في البيت الذي أقام فيه في ذلك الوقت حين ذهب الى الولايات المتحدة ليحضر اجتماعات الدورة الخاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة على مستوى رؤساء الدول ، وكانت تلك الدورة آخر تجمع على أوسع نطاق لعصر العمالقة .

أتذكر أننا رحنا نتابع المناقشة بين « كنيدي » و « نيكسون » صامتين .

واستمرت المناقشة ثلاثة أرباع الساعة ، وحين انتهت ، تطلع اليّ « جمال عبد الناصر » وقال لي بصوت تخالجه نبرة حيرة :

- الغريب أنني بدأت أتابع المناقشة متحيزا لـ « نيكسون » . . . ربما لأنني تعاملت معه حين كان نائبا للرئيس في عهد « أيزنهاور » أيام السويس سنة ١٩٥٨ .

لكن المناقشة انتهت وأنا الى « كنيدي » أقرب مني الى « نيكسون » .

ان حجج الاثنين في القضايا التي أثيرت في المناقشة كانت متكافئة . . . كل وجهة نظر لها ما يبررها من وجهة نظر صاحبها ، لكن « نيكسون » لم يستطع أن يصل اليّ ، في حين أن « كنيدي » استطاع أن يصل .

كانت ملاحظة جمال عبد الناصر صحيحة ، وكانت هي ملخص المعركة الانتخابية كلها في ذلك الوقت في بداية الستينات .

وعندما جاءت بداية السبعينات ، كان « نيكسون » قد وعى الدرس وحفظه عن ظهر قلب . تعلم كيف يواجه عدسات التليفزيون دون أن يكون قطعة حجر . باع نفسه تماما لعدسات التليفزيون حتى تستطيع هذه العدسات بدورها أن تبيعه الى الناس .

يروي كتاب « صنع الرئيس » - على سبيل المثال - كيف أن « نيكسون » في نهاية الستينات لم يكن له هم الا أن يتدرب على مواجهة العدسات وأن يبدو أمامها انسانا طبيعيا لا يتكلف في حركاته ولا يشد بالتوتر تقاطيع وجهه .

ومن يصدق - مثلا - أن مرشحا لرئاسة الولايات المتحدة أعاد مدخل خطاب مسجل للتليفزيون احدى وعشرين مرة قبل أن يرضى المخرجون وخبراء التصوير والاضاءة عن المشهد ويعتبرونه صالحا للعرض قادرا على التأثير ؟ !!

لكن السبعينات مع ذلك شهدت مصرع « نيكسون » .

صرعته الأسلحة الجديدة - وسائل الاعلام .

كانت جريدة « واشنطن بوست » هي مقدمة الهجمة الضارية عليه في فضيحة « ووترجيت » ، ولكن المقدمة تبعتها الجحافل من بطاريات الأنوار الكاشفة والميكروفونات وعدسات التصوير - للتليفزيون بالذات .

وراء هذه الجحافل - وليس قبلها - تحرك الكونجرس ليبحث في عزل الرئيس .

ووراء هذه الجحافل تحركت المحكمة العليا لتفصل في شرعية تصرفاته .

والحقيقة أن المؤسسات السياسية والدستورية في الولايات المتحدة لم تصنع شيئا في مصرع « ريتشارد نيكسون » - الا أنها حررت الشهادة الرسمية بنهايته السياسية .

كان المركز الجديد للقوة يؤكد قدرته بسرعة وكفاءة في وقت حفل بالمتغيرات .

كانت الفترة حافلة بمتغيرات كثيرة في مواقع القوة ، وكانت هناك مراكز جديدة وافدة ، لكن وسائل الاعلام - والتليفزيون أولها - احتلت مركزا متميزا في قدرة التأثير ، وكانت أنماط الحياة في العصر الصناعي وبعده تساعدها بأكثر مما تصور أحد .

كان « لينين » - على سبيل المثال - يقول إن مهمة السياسي أن يذهب الى الجماهير حيث تكون .

أين كانت الجماهير الآن وأين كانت تجمعاتها ؟

هل كانت في المصانع ؟ هل كانت في قاعات الاجتماعات ؟ هل كانت في دور الأحزاب أو في النقابات أو حتى في الشوارع ؟

كانت ضرورات الحياة في العصر الحديث - العصر الصناعي وما بعد - قد أتت بأنماط جديدة في المعيشة والسلوك .

غالبية الناس يعملون من الصباح الى ما بعد الظهر . يعودون من أعمالهم ليجدوا آلة سحرية تنقل اليهم الدنيا كلها في غرف جلوسهم وطعامهم ونومهم .

اهتماماتهم كلها : الاجتماعية والرياضية والثقافية والسياسية تحت تصرفهم حيث هم بلمسة أصبع على زر .

العالم كله يجيء اليهم ، فأي حاجة بهم للذهاب الى العالم ؟

لكن المشكلة أنهم ينسون أن العالم يجيء اليهم من خلال وسيط ، وهذا الوسيط ليس الآلة الصماء التي تنقل اليهم ، وانما هي العقول والأفكار والارادات والمصالح التي تقدم وتؤخر وتكشف وتحجب .

ان الموضوع ليس موضوع مؤامرة على وعي الناس ، ولكنه أبسط من المؤامرة بكثير ، وأعقد من المؤامرة بكثير أيضا .

موضوع تختلط فيه أمزجة ومواهب أفراد ، وجاذبية واشعاع نجوم ،

وكفاءة بيع سلع وقضايا . هذا بالطبع الى جانب مصالح ومطامح فردية وعامة .

وفقدت مراكز القوة التقليدية القديمة سرها .

الرئيس في البيت الأبيض - خصوصا بعد « ووترجيت » - موجود ، لكن البيت الأبيض لم يعد كما كان ، أو كما كان في خيال الناس على الأقل ، رمزا لهيبة الولايات المتحدة ومبادئها .

والكونجرس - في الكابيتول - خصوصا بعد قصص الرشوة والجنس - موجود ، لكن الكونجرس لم يعد كما كان ، أو كما كان في خيال الناس على الأقل ، حصنا يحرس القوانين التي وضعها الآباء المؤسسون للولايات المتحدة .

والأحزاب - الحزبان الكبيران : الديمقراطي والجمهوري - هناك في مكانها ، لكن الأحزاب لم تعد اطار العمل السياسي والمجال الذي تبرز فيه القيادات . كل القيادات - بمن فيها الرئيس نفسه - لم تعد تظهر من بين الصفوف ، ولكنها الآن تظهر فجأة في الآفاق ، ثم تعبر هذه الآفاق كالصواريخ اذا استطاعت الحصول على الوقود .

والوقود السياسي هو طاقة الاهتمام العام ، وطاقة الاهتمام العام لها الآن مصادر أخرى هي القادرة على استخراجها وعلى استعمالها وعلى تدوير العجلات بها .

ان الرئيس الأمريكي السابق « ليندون جونسون » لخص الوضع الجديد - وكان ما زال في بداية تشكيله - في جلسة شهيرة نقلها الصحفي المرموق « دافيد هالبرستام » عن حديث دار بين « جونسون » - وكان في أواخر أيام رئاسته - وبين « سبيرو آجنيو » - وكان قد انتخب لتوه نائبا للرئيس مع « ريتشارد نيكسون » .

كان « آجنيو » قد ذهب يزور الرئيس الذي انتهت ولايته بهزيمة ساحقة - بسبب فيتنام - وراح يحزم حقائبه في البيت الأبيض استعدادا لمغادرته . وأحس « جونسون » أن « آجنيو » يزوره في طلب نصيحة ، فقد تشابهت أو كان يمكن

أن تتشابه ظروفهما : كلاهما كان نائبا للرئيس ، وكلاهما راوده الأمل أن يجيء عليه الدور ، وبالفعل جاء الدور على « جونسون »، ولكن « آجنيو » سقط في منتصف الطريق . المهم أن نصيحة « جونسون » لـ « آجنيو » في ذلك اليوم لخصت كل شيء عن الوضع الجديد .

قال « جونسون » لـ « آجنيو » :

- ان لدينا في هذه البلاد قناتين كبيرتين للتليفزيون « س . بي . اس . » و « ان . بي . سي . » - ولدينا صحيفتين كبيرتين « نيويورك تيمس » و « واشنطن بوست » - ولدينا وكالتين كبيرتين للأنباء « ا . ب » و « ي . ب . ا » - ولدينا مجلتين أسبوعتين كبيرتين « تايم » و « نيوزويك » - ان هذه المؤسسات جميعا كانت كبيرة وأصبحت أكبر ، والناس فيها يتصورون أنهم يملكون هذه البلاد ، ولا ينبغي أن يكون ذلك صحيحاً - ومع ذلك فنصيحتي لك أيها الشاب أن لا تدخل معهم في معركة .

كان « جونسون » مغرضا في رأيه الذي شاع وسط محيطه ، لكن وصفه للموقف العام لم يكن مغرضا !

ان ذلك الوضع اكتمل تشكيله بعد « عصر جونسون » ، وأظهر ما جرى أثناء عملية التشكيل أن قوة الصورة الملونة تجاوزت قوة الكلمة المكتوبة بالحبر الأسود ، وأن « الصورة » راحت تركز على كل ما هو درامي وتحول ساحات السياسة كلها الى شبه استديوهات تصوير .

تراجع عنصر « الأقناع » في العمل السياسي وتقدم عنصر « الانطباع » .

□ □ □

إن « صناع الصور » - صناع قوة الانطباع بصرف النظر عن قوة الاقناع - ظلوا هم أقوى القوى الجديدة في واشنطن في السبعينات ، وقوتهم باقية - وربما أكثر - في الثمانينات .

ولقد كان ملفتا للنظر أنه حينما أحاطت المشاكل بـ « جيمي كارتر ورئاسته ، وفكر في تقديم كباش فداء « للصورة » التي التصقت به أمام الناس ، وهي صورة الحائر الضائع . . . العاجز عن قيادة الولايات المتحدة في جو عاصف ، فان السكين في يده امتد ليذبح نصف مجلس الوزراء كله .

وعندما قيل له أن المشكلة ليست في مجلس الوزراء ، وانما المشكلة في البيت الأبيض وفي المستشارين المحيطين به - قال « كارتر » دون تردد :

- لا أستطيع أن أستغني عن واحد من هؤلاء . (« هاملتون ·جوردان » رئيس أركان حرب البيت الأبيض المتهم بشم الكوكايين - ثم « جودي باول » مستشاره الصحفي - ثم « جيرالد رافشون » خبيره في « صنع صورته » - ثم « كاديل » الذي يتولى قياس اتجاهات الرأي العام له كل أسبوع) .

كان هؤلاء هم الكتيبة الأولى في حملة « كارتر » الانتخابية .

حملة بدأت من فراغ تقريبا ، ومع ذلك فانها نجحت في أن تدفع برجل احترف زراعة وتجارة الفول السوداني في ولاية جورجيا ، لكي يصبح رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية .

كان ذلك - الى جانب وسائل أخرى لكي لا يكون التبسيط زائدا عن حده - بوسيلة « صنع الصور » . . . صورة رجل طيب بعد رجل خبيث في البيت الأبيض (نيكسون) - صورة رجل نظيف بعد رجل لم يكن في أكثر التعبيرات تهذيبا رجلا نظيفا (نيكسون) - صورة رجل مؤمن ومتواضع بعد رجل ضيع ايمانه وتعلق بأوهام الرئاسة الامبراطورية حتى هدمته فضيحة « ووترجيت » !

كان « كارتر » ، في الظروف الموضوعية المحيطة به ، على حق حين قال انه على استعداد لأن يفرط في كل من حوله عدا هؤلاء . . . عدا صناع الصور .

كان صناع الصور هم الذين أشاروا عليه برحلته الى الشرق

الأوسط مثلا . فقد كان رأيهم أن المنطقة وظروفها قادرة على شد كل الأقلام والميكروفونات ، وأهم من ذلك كل العدسات اليها .

وكان هؤلاء هم الذين ضغطوا من أجل اجتماعات « كامب دافيد » . وفي حين كان خبراء وزارة الخارجية مثلا يرون أن الأحوال ليست مهيأة بعد لعقد اتفاق بين مصر واسرائيل ، وأن رهن هيبة الرئيس الأمريكي تحت رحمة اجتماع من هذا النوع لمشكلة من هذا الحجم مخاطرة سياسية - فان صناع الصور كان رأيهم على العكس : القضايا الآن خلق انطباعات وليست توليد اقتناعات .

لتقل وزارة الخارجية ما تقول ، وليحدث ما يحدث في الشرق الأوسط ، كل هذه قضايا يمكن الالتفات اليها فيا بعد . ما لا يقبل التأجيل هو أن يتمكن « صناع الصور » بسرعة من فتح شهية مركز القوة الجديد في وسائل الاعلام - والتلفزيون بالذات - حتى تنصب المسارح وحوامل الأضواء والعيون الالكترونية - في عصر « السياسة الالكترونية » .

□ □ □

كان « كارتر » على حق ، والدليل هو تحدي « ادوارد كنيدي » له .

من هو « ادوارد كنيدي » ؟

« صورة مشوقة » وراءها «أسطورة مثيرة» وراءها قصص اخبارية من أول طراز .

أتذكر محاضرة في جامعة كولومبيا في نيويورك ضمن حلقة دراسية أقامتها هذه الجامعة عن الخبر « المقروء » أكثر من غيره .

قال لنا الأستاذ المحاضر إن الخبر « المقروء » أكثر من غيره يجب أن تتوافر فيه مجموعة أشياء : « شيء من الدين وشيء من الملوكية وشيء من الجنس وشيء من الغموض وشيء من الجريمة » .

وقال لنا الاستاذ المحاضر إنه ومجموعة من زملائه فكروا في تركيب خبر

قصير يضم كل هذه الأشياء « المقروءة » أكثر من غيرها ، ثم انتهوا الى الجملة التالية :

« رباه . . . ان الملكة حامل . . . فمن فعلها ؟ »

كانت كلمة « رباه » تشير الى هذا الشيء من الدين . . . وكلمة « الملكة » تشير الى شيء من « الملوكية » . . . وعبارة إن « الملكة حامل » تشير الى شيء من الجنس . . . ثم أن عبارة « من فعلها » ؟ تشير الى شيء من الغموض وتوحي بشيء من الجريمة .

وبهذه المعايير فإن قصة « كنيدي » تصبح أكبر خبر مقروء .

كاثوليكي في بلد بروتستانتي . . . أسرة « كنيدي » تكاد أن تكون سلالة ملكية - أخ بعد أخ يرشح للرئاسة . . . « جاكلين كنيدي أوناسيس » وحدها تعطي الأسرة كل ماتريده وأكثر فيما يندرج تحت بند أن « الملكة حامل » . . . ثم ان الغموض المحيط بمقتل « جون كنيدي » و « روبرت كنيدي » يضيف كل الغموض المطلوب وكل جو الجريمة على مستوى القمة ؟

الى جانب ذلك مال آل كنيدي الطائل .

وهكذا أصبح تحدي « تيدي » لـ « جيمي » تحديا حقيقيا في عالم تحكمه الصور وتسيطر فيه السياسة بالالكترونات ، ويوجهه الانطباع قبل الاقتناع .

□ □ □

هكذا تتحرك السياسة الأمريكية ونحن على مشارف الثمانينات .

« أزمة اللواء السوفيتي في كوبا » من أولها الى آخرها كانت رغبة في خلق « انطباع » ضد « كاسترو » في مؤتمر قمة الدول غير المنحازة .

« أزمة الرهائن في السفارة الأمريكية في ايران » وما لحقها من حظر استيراد البترول الايراني الى أمريكا ثم تجميد أرصدة ايران من الدولار كان

هدفها خلق « الانطباع » بأن هناك رئيسا أمريكيا يستطيع أن يتصرف ويرد الصاع صاعين في البيت الأبيض .

انطباعات . . . انطباعات .

وسائل القوة الجديدة في الولايات المتحدة تنقل « صورا » تصنع تأثيرات غير مخططة وغير محسوبة .

والقرار الأمريكي يرد بخلق « انطباعات » .

والانطباعات تتحول الى مواقف تترتب عليها سياسات غير مقصودة وغير مأمونة في بعض الأحيان .

ومن الذي يستطيع أن يتعامل مع الولايات المتحدة في هذا المناخ ؟ وعلى اي قواعد ؟ ووفقاً لأي اسس وتقديرات ؟ أسئلة خطيرة معلقة على آفاق الثمانينات !

آفاق الثمانينات (٤)

حكاية "ادوارد كنيدي" والمعركة الانتخابية القادمة

قبل أن يعلن « ادوارد كنيدي » عزمه على ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة الأمريكية القادمة - نوفمبر سنة ١٩٨٠ - كنت في باريس أتناول العشاء ذات ليلة إلى مائدة « بيير سالينجر » الصحفي الأمريكي اللامع الذي كان مستشارا صحفيا لـ « جون كنيدي » أثناء توليه الرئاسة ، والذي كان من أقرب الناس الى ذلك الرئيس الأسطورة الذي فهم عصر « السياسة بالالكترونات » مبكرا ، واستفاد منه حيا وميتا !

« بيير سالينجر » - الى جانب ذلك - صديق حميم لأسرة « كنيدي » التي هي أسطورة متوهجة في الحياة السياسية والاجتماعية للولايات المتحدة : أسطورة ساهمت في صنعها ثروة « جوزيف كنيدي » الكبير ، ورئاسة « جون كنيدي » الفوارة بالشباب في بداية الستينات ، ومصرعه المأساوي الغامض في دالاس ، وزوجته « جاكلين » التي لعبت أمام عدسات التليفزيون دور الملهمة الجميلة في حياته والأرملة الأكثر جمالا بعد موته ، ومع ذلك فهي لم تنتظر أكثر من سنوات قليلة بعد المأساة حتى ألقت بنفسها في أحضان مليونير يوناني عجوز - « أوناسيس » - وفقا لشروط عقد زواج مكتوب من ست صفحات ، هو أغرب عقود الزواج في التاريخ الحديث . وحين مات المليونير العجوز وورثت بعض ثروته ، عادت مرة أخرى الى الأسرة الأسطورة تحت اسم « جاكلين كنيدي أوناسيس » . ثم ترسخت الأسطورة بعد ذلك بترشيح الشقيق الثاني لـ « جون كنيدي » - « روبرت » - للرئاسة في انتخابات سنة ١٩٦٤ . وفي خضم المعركة الانتخابية قتل « روبرت كنيدي » هو الآخر بطريقة غامضة ، أو على

الأقل لأسباب غامضة حركت شابا من أصل عربي هو « سرحان بشارة سرحان » الى اطلاق الرصاص عليه بغير سبب مقنع ، ثم ظلت الأسطورة متأهبة في انتظار فارس جديد من أسرة « كنيدي » ، وكان الشقيق الثالث - أصغرهم جميعا - هو المؤهل والمرشح .

« بيير سالينجر »- الى جانب ذلك - من أكثر المراقبين متابعة وعلما بما يجري في الولايات المتحدة ، ورغم أنه اختار الاقامة في باريس ، فان بيته في شارع ريفولي المطل على حدائق قصر « التويلري » ، يكاد أن يكون سفارة غير رسمية للولايات المتحدة في العاصمة الفرنسية . لا أتذكر أنني قصدت الى بيت « بيير » في باريس الا ووجدته هو وزوجته الذكية الرقيقة - « نيكول » - مضيفين لأبرز العابرين بأوروبا من نجوم السياسة والفكر والثقافة في الولايات المتحدة : مرشحين للرئاسة ، أعضاء مجلس شيوخ ، صحفيين كباراً ، أساتذة جامعات من القادرين على الوصول الى آذان الرؤساء في البيت الأبيض أو كبار المنفذين والموجهين للسياسة الأمريكية .

كان حديثنا في تلك الليلة عن « ادوارد كنيدي » . . . هل يرشح نفسه أو لا يرشح نفسه للرئاسة ؟

هناك شواهد تقول أنه على وشك ، وهناك شواهد أخرى تقول أنه ما زال يؤثر الانتظار .

وسألت « بيير سالينجر » سؤالا مباشرا في الموضوع كصديق للأسرة وكواحد من المقربين لـ « ادوارد كنيدي » الذي يحمل اليوم أسطورتها على كتفيه .

وقال « بيير سالينجر » :

- اظننا على وشك أن نسمع عن قرار في الموضوع ، ولكني اعتقد أن كل شيء حتى هذه الدقيقة ، حتى هذه الثانية - قالها وهو ينظر في ساعته - ما زال معلقا .

هناك محاذير عامة وخاصة من ناحية ، ولكن هناك اغراءات لا تقاوم من ناحية أخرى .

● على المستوى العام :

هناك أن « تيد » يتحرج قبل أن يتحدى رئيسا من حزبه في البيت الأبيض فعلا .

هناك أيضا أن « تيد » يرى أن أغلبية تريده ، ولكن ذلك لا يمنعه من أن يرى أيضا أن ترشيحه نفسه - ضد رئيس من الحزب في البيت الأبيض - سوف يؤدي الى انقسام الحزب .

هو لا يريد أن يدخل التاريخ كرجل كسر رئيسا لحزبه . . . أو كرجل كسر وحدة هذا الحزب .

لكن هناك مشكلة .

المشكلة أن « كارتر » ضعيف ، وهناك من يتحدونه داخل الحزب الديمقراطي نفسه ، كـ « جيري براون » حاكم كاليفورنيا .

« تيد » لا يمانع أن يبدأ التحدي لـ « كارتر » من داخل الحزب بواسطة آخرين غيره .

اذا وقع التحدي ، فان « تيد » قد يشعر أنه في حل من دخول الساحة ، خصوصا اذا بدا أن « كارتر » سوف يخسر المعركة . . . سواء معركة الترشيح عن الحزب أمام واحد منه كـ « براون » مثلا ، أو معركة الانتخابات نفسها أمام مرشح جمهوري كـ « رونالد ريجان » حاكم كاليفورنيا السابق مثلا .

● على المستوى الشخصي :

هناك أن الأسرة ، وفي مقدمتها أمه « روز » التي وصلت الى التسعين سنا من عمرها ، تخشى عليه أن يلقى مصير ابنيها من قبله : « جون » ،

« روبرت » ـ كلاهما راحا ضحية الاغتيال في مأساة دموية عنيفة ، والأم لا تستطيع أن تعيش التجربة مرة ثالثة .

وهي تريد - بغير شك - أن ترى ابنها الثالث رئيسا للولايات المتحدة ، لكنها تخشى أن تفقده في هذا الجو المحموم الذي يسيطر على الولايات المتحدة . . . ان نزعات العنف الدموي في المجتمع الأمريكي الآن أقل مما كانت عليه في الستينات ، ولكن هناك قاتل محتمل في كل مجتمع - هكذا تخشى .

هناك أيضا مشكلة « تشاباكويديك » - قضية سكرتيرة « ادوارد كنيدي » التي واجهت نهايتها غرقا في سيارته ذات ليلة - ان هذه المشكلة تفجرت الى حد الفضيحة ، والرأي العام الأمريكي لم ينس الوقائع بعد ، خصوصا وأن هناك كثيرين - وفي مقدمتهم « كارتر » - سوف يكونون على استعداد لتذكيره بواقعة تلك الليلة على جسر « تشاباكويديك » .

هناك كذلك مشكلة زوجته « جوان » . . ان الحياة التي عاشتها بقربه وفي الجو الذي أحاط به أصابتها بأكثر من انهيار عصبي . . . نتيجة لذلك أدمنت الشراب . ولقد دخلت « جوان » الى مصح يعالجها من الادمان ، وأظنها شفيت ، لكن أحوالها العصبية ما زالت هشة ، وتستطيع ضغوط المعركة الانتخابية - خصوصا اذا أثيرت فيها قضايا مثل فضيحة « تشاباكويديك » - أن تحطمها مرة أخرى . . . »

وسكت « بيير سالينجر » قليلا ، ثم استطرد :

- لا ينبغي أن يخطىء أحد . . . « تيد » يريد أن يكون رئيسا للولايات المتحدة .

في أعماق اعماقه يشعر أن هذا من حقه . . . لا تسألني عن الأسباب التي تغذي شعوره بهذا الحق ، فهي طويلة ومعقدة . . . لكن ذلك شعوره .

أظنه كان يفضل أن يخوض معركة انتخابات الرئاسة سنة ١٩٨٤ ، فهو لا

يزال شابا يستطيع أن ينتظر أربع سنوات أخرى تكون ظروفه العامة والخاصة فيها قد تغيرت .

لكن هناك مأزقا أظنه سوف يدفعه في النهاية الى ترجيح ترشيح نفسه .

« كارتر » يضعف . . . يضعف كل يوم . و « براون » قد ينجح في تحديه من داخل الحزب الديمقراطي ، وقد يتحداه آخر من الحزب الجمهوري غير « براون » ، ومعنى ذلك أن أي رئيس جديد ينجح في اخراج « كارتر » من البيت الأبيض سوف تكون أمامه - طبيعيا - فرصة مرتين للرئاسة . . . أي ثماني سنوات .

بعد ثماني سنوات يشعر « تيد » أنه سوف يكون متقدما في السن بأكثر مما هو مطلوب لمرشح من أسرة « كنيدي » . . . كذلك فان ثماني سنوات مدة طويلة سوف يحتار ماذا يفعل فيها لكي يظل دائما في دائرة الضوء ؟

لو كان هناك من يضمن له أن « كارتر » مرشح قابل للنجاح في الانتخابات القادمة ، وأنه سوف يكمل المدة الطبيعية لرئيس في البيت الأبيض - فترتين كل منهما لأربع سنوات - لآثر « كنيدي » أن ينتظر سنة ١٩٨٤ .

لكن ضعف « كارتر » وامكانية تحديه من داخل الحزب حتى من غير « كنيدي » ، ثم وهذا هو الأهم احتمال سقوطه في الانتخابات - كلها عوامل تضغط على قرار « كنيدي » وقد تدفعه الى الدخول .

لا تنس بالطبع أن هناك كثيرين من أصدقاء الأسرة ومستشاريها ومن الذين لعبوا أدوارا بارزة في حكم « جون » وفي ترشيح « روبرت » ، طال حنينهم الى السلطة . هم لا يحنون الى السلطة لمجرد طلب القوة ، ولكن لأنهم يعتقدون أنهم - أكثر من غيرهم - قادرون على تحريك السياسة الأمريكية لمواجهة تحديات الثمانينات . . . اذا لم يأخذوا الفرصة هذه المرة فسوف تضيع الى الأبد . . . سوف تجيء انتخابات سنة ١٩٨٨ وهم في نهاية العمر ، وسوف يجدون أنفسهم على أبواب التسعينات من هذا القرن عاجزين - أغلب الظن - حتى عن فهم قضايا الحقب القادمة . . . مجرد فهمها .

فرسان المائدة المستديرة ما زالوا يحلمون بأسطورة الملك آرثر!

فجأة شاعت ابتسامة على وجه « بيير سالينجر » ، ثم تحولت الابتسامة الى ضحكة عالية وهو يقول :

- سوف أعطيكم جميعا علامة لا تخطيء تستطيعون منها أن تعرفوا نوايا « ادوارد كنيدي » .

اذا وجدتموه في يوم من الأيام منهمكا في تخسيس نفسه لانقاص وزنه ، فهذه هي الاشارة الى أنه قد اتخذ قراره وأنه سوف يدخل المعركة الى النهاية .

هو يشعر أن وزنه زائد بمقدار عشرين رطلا عن الوزن المقبول . . . الوزن الذي يجعل صورته على شاشات التليفزيون قادرة على أن « تسحر » خيال المشاهدين .

« صورته » وهو عضو في مجلس الشيوخ عن ولاية ماساشوسيتس أمر سهل .

ولكن «صورته» وهو مرشح للرئاسة أمر لا يقبل أنصاف حلول! .

□ □ □

أعترف أنني لم آخذ ملاحظة « بيير سالينجر » الأخيرة جدا . ضحكت حين سمعتها ، فلقد بدت لي على الفور غرابة أن تكون الطلقة الأولى في معركة انتخابات لرئاسة الولايات المتحدة - هي عشرون رطلا من الشحم يحتفظ بها مرشح أو يفقدها . لكن الذي لفت نظري أن غيري على مائدة العشاء من الأمريكيين لم يضحكوا . كان بينهم على سبيل المثال السناتور « جورج ماكجفرن » ، وقد كان هو نفسه مرشحا للرئاسة من قبل مرتين!

وفي نيويورك اكتشفت كم كنت مخطئا .

حين وصلت الى نيويورك كان بين من اتصلت بهم مبكرا المعلق المشهور « رولاند ايفانز » الذي ينشر عموده مرتين في الأسبوع في أكثر من ثلاثمائة

صحيفة في الولايات المتحدة ، أولها الـ « واشنطن بوست » .

كان اتصالي به تليفونيا من نيويورك الى واشنطن أرجوه أن يتولى هو ترتيب بعض مقابلات أردتها مع شخصيات عديدة في العاصمة الأمريكية . لكنني بالطبع ، وعلى التليفون بين نيويورك وواشنطن ، لم أكن قادرا على الصبر دون أن أسأل عن آخر الأخبار .

وجاءني صوت « رولاند ايفانز » ، جادا شديد الجد كعادته ، ليقول :

- أهم الأخبار في واشنطن اليوم أننا اكتشفنا أن السناتور « كنيدي » امتنع عن أكل الـ « آيس كريم » منذ عدة أسابيع ، لأنه يريد تخسيس نفسه وانقاص وزنه .

وهذه مسألة لها دلالتها .

إن أكل الـ « آيس كريم » - المثلجات - هو غرام « تيد » الأكبر . وأن يضحي « تيد » بالـ « آيس كريم » ، فهذه علامة لا يمكن أن يكون لها معنى الا أنه قرر ترشيح نفسه . . . لا شيء يجعل « تيد » يضحي بالـ « آيس كريم » الا مقعد الرئاسة والبيت الأبيض .

إن العد التنازلي لترشيح « تيد كنيدي » قد بدأ فعلا . . هذه مسألة لم تعد بالنسبة لي موضع شك . . . واظنك سوف تأتي الى واشنطن لتجد أن ترشيحه حقيقة واقعة » .

واستطرد « رولاند ايفانز » :

- سوف تكون المعركة مروعة . . .

وسألته متى يتوقع أن يجيء اعلان « كنيدي » الرسمي بترشيح نفسه ؟ وكان رده :

- أتصور أنه لن يتأخر كثيرا . . . لكن عليه فيما أظن أن يستأذن « كارتر » . . . على الأقل يخطره باعتباره رئيسا رسميا للحزب الديمقراطي .

وتساءلت مستغربا :

- هل معنى ذلك أن « كنيدي » سوف يذهب الى « كارتر » ليقول له : سيدي الرئيس هل تسمح لي أن أذبحك في المعركة القادمة ؟ !

وضحك « رولاند » قائلا :

- لا أظنه سوف يقول له ذلك تماما . . . أقصد بهذه الألفاظ . . . سوف يقول له شيئا يؤدي نفس المعنى ، ولكن بطريقة أكثر تهذيبا . . . ومع ذلك فلماذا لا تنتظر حتى تجيء الى هنا - الى واشنطن - وترى بنفسك وتسمع ؟ !

□ □ □

وعندما وصلت الى واشنطن ، رأيت وسمعت الكثير عن مقدمات معركة من أغرب المعارك الانتخابية في الولايات المتحدة ، وهي معركة سوف تؤثر على عالم الثمانينات كله سواء أحب ذلك العالم هذا التأثير أو كره .

معركة بدأت باقلاع أكبر نجومها عن أكل الـ « آيس كريم » لكي يفقد عشرين رطلا من وزنه ، وكانت هذه هي العلامة الأكيدة على عزمه أن يرشح نفسه للرئاسة .

كان عليه بعدها أن يخطر « كارتر » بعزمه باعتباره رئيسا للحزب ، وحتى لا يقال فيما بعد إنه تسبب في احراجه أو في تحطيم وحدة هذا الحزب . لكنه كان مترددا بسبب مشاعر انسانية وولاءات شكلية .

كان « كارتر » هو الذي جعله يتغلب على تردده ويتجاوز حدود الولاء الشكلي حين كرر مرة أخرى ملاحظة قالها عنه .

سئل « كارتر » ما هو رأيه في احتمال تحدي « كنيدي » له ، وماذا سيفعل في هذه الحالة ؟

وكان رد « كارتر » - أوحى به اليه مستشاروه الأقربون في البيت الأبيض - لكي يظهر به حازما الى حد « الوقاحة » لو اقتضى الأمر . فالوقاحة

في مثل هذه الأحوال سوف تجعله يبدو على شاشات التليفزيون - في الصور - راعي بقر حقيقي . . . جلفاً لا يهمه شيء ، وهذا يثير اعجاب الرأي العام الأمريكي .

كان رد « كارتر » :

- لو تقدم كنيدي لترشيح نفسه ، فاني سوف ألسع بالسوط مؤخرته .

ولم يستعمل « كارتر » تعبير « مؤخرته » ، وانما اختار الوصف الطبيعي الدارج لمؤخرة أي انسان !!!

واضطر « كنيدي » الى التعليق على ملاحظة الرئيس عندما سئل عنها، وكان رده بسخرية :

- لقد كنت أعرف أن الرئيس يتابعني عن قرب ، ولكني لم أكن أتصور أنه قريب الى هذا الحد من مؤخرتي !!

وبعدها بيومين طلب موعدا للقاء « كارتر » . . .

جاءت لحظة المواجهة المباشرة بين الاثنين . . . لحظة الحقيقة .

وفي مساء نفس اليوم كانت تفاصيل اللقاء بين الاثنين هي قصة السهرة في عديد من صالونات « جورج تاون » ، الحي الذي تسكنه أرستقراطية واشنطن السياسية والفكرية والصحفية .

كانت كل الروايات مجمعة على أن «كنيدي» أخذ زمام المبادرة في اللقاء ، فاذا هو يسأل « كارتر » عن نواياه . . .

هل ينوي اعادة ترشيح نفسه ؟

ان هناك مخاطر على الحزب الديمقراطي أن يخسر الرئاسة ، فاستفتاءات الرأي العام تشير الى هبوط حاد ومستمر في شعبيته . . . حوالي عشرين في المائة من الرأي العام فقط يؤيدونه ، والأغلبية الكاسحة بعد ذلك كلها ضده .

بل ان احصائيات قنوات التليفزيون الثلاث تؤكد أن الاقبال على مشاهدة

أحاديثه ومؤتمراته الصحفية تآكل باعراض الناس عنها بالملل ... نزل الى النصف ثم الى الربع ممن كانوا يهتمون بما يقوله رئيس الولايات المتحدة .

إن الرئيس بلا شك محق اذا أعاد التفكير في الأمر على ضوء مصلحة الحزب ، فهو لا يرضى مهما كانت مطامحه الشخصية أن يسلم الرئاسة الى الجمهوريين .

يبدو أن كنيدي كان يساوره أمل في أن يقتنع الرئيس « كارتر » بعدم جدوى ترشيح نفسه ، فهي مخاطرة يائسة ، وليس هو وحده دافع تكاليفها وانما هناك الحزب .

إن « ليندون جونسون » واجه مثل هذا الموقف من قبل في انتخابات سنة ١٩٦٨ ، ووقتها أعلن من جانبه أنه سينسحب من المعركة وأنه لن يرشح نفسه رغم أن الدستور يعطيه الحق في فترة رئاسة ثانية .

إن « كارتر » - كما فهمت - فوجىء بأسلوب « كنيدي » ...

كان يتصور أنه هو - كرئيس للحزب - سوف يسأل « كنيدي » أو يسائله ، لكنه لم يتوقع أن يكون « كنيدي » هو السائل المتسائل .

كانت « روزالين كارتر » - قرينة الرئيس - معهما في هذا اللقاء . صممت على حضوره ، وحولته الى غداء عمل لثلاثة كي تضفي على المناسبة طابعا اجتماعيا يسهل لها الحضور .

وكانت هي - قبل زوجها - أول من نفض المفاجأة عن أعصابه ، فاذا هي تتدخل فجأة في الحديث وتقول :

- إن الرئيس سوف يعيد ترشيح نفسه ... هذه مسألة لا ينبغي أن تكون موضع شك .

ثم استطردت على الفور :

- وأنت ... سناتور كنيدي ... ما هي نواياك ؟ !

قالتها وهي تدعو الاثنين الى مائدة الغداء ، وتقدمتهما الى قاعة الطعام ، ولعلها بذكاء امرأة أرادت أن تعطي لـ « كنيدي » فرصة يفكر فيها بسرعة اذا كان يريد معاودة التفكير .

وجلس الثلاثة على الغداء : طبق جبن أبيض وسلطة فواكه .

ولم يبد على « روزالين » أنها تتعجل الاجابة على سؤالها الذي وجهته قبل دخول قاعة الطعام ، وهكذا تعطل الحديث الخطير بأحاديث فرعية معظمها له طابع اجتماعي .

وكاد الثلاثة أن يفرغوا من الطعام ، وفجأة قامت « روزالين كارتر » بحركة تطويق سريعة عادت بها الى الموضوع - قالت لـ « كنيدي » :

- لقد كان طبق الحلو الذي اعددته بعد الغداء هو الـ « آيس كريم » ولكني فهمت متأخرا أنك لم تعد تحبه .

وابتسم « تيدي » مدركا أن الهجوم الرئيسي على وشك أن يبدأ أو يستأنف ، ولم يطل انتظاره لأن « روزالين » عادت تسأله :

- سناتور كنيدي .. انك لم تجب على سؤالي ما هي نواياك .. هل تنوي ترشيح نفسك ؟

وقال « كنيدي » :

- انني أفكر جديا في الموضوع ... وأدرس احتمالاته من كل النواحي ... أنا أفكر فيه من زوايا متعددة ، بينها مصلحة الحزب الديمقراطي ومصلحة الولايات المتحدة .

وروى « كنيدي » بعد اللقاء أن الحديث عند ذلك الحد تعثر ، بل انه كان يحس بصعوبة في ابتلاع رشفات قهوة من فنجانه ، وكذلك أحس بنفس الصعوبة يعانيها مضيفوه . وكان الحل الأمثل بعد ذلك هو الاستئذان في الانصراف .

روى « كنيدي » أيضا للقريبين منه أنه حين عرف أن اللقاء سيكون ثلاثيا بحضور « روزالين » ، أدرك أن اي أمل في اقناع « كارتر » بالانسحاب من المعركة لم يعد له أساس . وكان رأيه أن التصميم لم يكن من « روزالين » وحدها ، وانما المحيطون جميعا بالرئيس كانوا مستميتين في شد أزره في تلك اللحظات حتى لا يضعف . وعلى أي حال فقد كان من الصعب جدا أن يقبل « كارتر » فكرة الانسحاب لأنه «هونفسه يستحلي منصبه وقد أصبح فيه « مدمن قوة » بصرف النظر عن أنه لا يمارس منه غير الضعف !؟

□ □ □

وهكذا بدأت واحتدمت - قبل الأوان - معركة من أغرب معارك الانتخابات لرئاسة الولايات المتحدة .

الخطير في الموضوع كله أنها معركة « صور » .

معركة لا تجري منافسة بين برامج ، فليس هناك فارق في اتجاهات « كارتر » التشريعية يختلف عن اتجاهات « كنيدي » التشريعية .

ثم هي معركة لا تديرها أحزاب ، فالحزب الديمقراطي الذي تدور المعركة في اطاره حتى الآن ، ليس له وجود مؤثر ، ثم ان قياداته موزعة ولعلها مبعثرة .

وأكثر من ذلك ، فليست هناك ساحة للمعركة تعرف حدودها وتخومها ، أو تعرف مواقعها ومراكزها . . . الكونجرس بعيد ، والاجتماعات العامة وغيرها من مظاهر العمل السياسي غير موجودة .

أكثر واكثر ، فليس هناك جمهور منظم أو شبه منظم يستطيع أي مرشح أن يذهب اليه ليعرض قضية ، فالجمهور هناك موزع عبر الولايات على الجبال وفي السهول وعند شواطىء المحيطات ووراء الصحارى . . . كل واحد منهم في قاعة جلوسه ، أو قاعة طعامه ، أو قاعة نومه يتفرج على صور .

ومحور المعركة الانتخابية أن صورة « كارتر » مهتزة ، في حين أن صورة « كنيدي » ثابتة .

ثم أن صورة « كارتر » شاحبة ، في حين أن صورة « كنيدي » زاهية الألوان .

أخطر من ذلك أنه ليس هناك مرصد للاتجاهات والتحولات الا أجهزة « كمبيوتر » - عقول الكترونية - في عدد من مكاتب استقصاء اتجاهات الرأي العام تقيس شعبية « صور » المرشحين عن طريق اتصالات تلفونية دورية بمشاهدي هذه « الصورة » .

ثم أن قنوات التليفزيون الثلاث الكبرى تصدر كل أسبوع بيانات عن نسب الاقبال المتفاوتة على متابعة نشاط المرشحين ومشاهدة « صورهم » .

وهكذا فان « الصور » تغذي نفسها ... « الصور » تلد « صورا » جديدة تنفي أو تؤكد كل أسبوع ما أعطته هي نفسها في أسبوع سابق .

وكان يمكن أن تكون هذه الحكاية الجديدة - « السياسة بالالكترونات » - ظاهرة تستحق المشاهدة والمتابعة كفيلم سينمائي مثير - لولا أنها تحدث في الولايات المتحدة بالذات ، وتؤثر على سياستها ، وبالتالي تؤثر على العالم كله ، وهو مقبل على حقبة حافلة في الثمانينات .

ولقد رأينا - على سبيل المثال - ما فعلته « السياسة بالالكترونات » في أزمة الشرق الأوسط ابتداء من المبادرة الى كامب دافيد ، وخلاصته أن نجوم قنوات التليفزيون الثلاثة الكبار من مقدمي البرامج السياسية في أمريكا ، وهم « والتر كرونكايت » (سي . بي . اس) ، و « باربرة والترز » (ايه . بي . سي) ، و « جون تشانسلور » (ان . بي . سي) - نجحوا في تفكيك الأزمة - ولا أقول في حلها - بما لم ينجح فيه كل رؤساء الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية من « ترومان » الى « كارتر » ، وكل وزراء خارجيتها من « اتشيسون » الى « فانس » .

كانت « الصور » هي الهدف ، وكان الرئيس الأمريكي « جيمي كارتر » يريد أن يحتل أكبر مساحة من « الصور » .

كان ذلك قبل أن تبدأ المعركة الانتخابية ، وان كان السباق على « الصور » في قضية الشرق الأوسط قد اتصل بالمقدمات الأولية لها .

ومع بداية المعركة - وقبل أن يعلن « كنيدي » ترشيحه رسميا - جرى تأزيم الموقف مع كوبا ومع السوفيت بحجة أن هناك لواء سوفيتيا مسلحا على أرض الجزيرة - وكان الهدف هو « الصور » ، وبالتحديد اجراء رتوش على ملامح « صورة » كارتر كي تظهر فيها من نذر الحزم أكثر مما فيها من دلائل الطيبة .

وفشلت المحاولة ، بل إن افتعال أزمة كوبا وطريقة ادارة هذه الأزمة أخذت من ملامح « صورة » كارتر أي تعبير يدل على الرصانة والحكمة .

وبدأت المعركة واحتدمت .

وجاءت أزمة الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران مجالا مفتوحا لصناع « الصور » .

أريد أن أكون واضحا ، فلست متحمسا لمنطق اقتحام السفارات واحتجاز الرهائن - مع أن القصة في طهران أكثر تعقيدا مما يبدو على سطحها - لكن ذلك لا يمنعني من القول بأن هذه الأزمة جاءت في توقيتها المناسب لرئيس تؤرقه مشكلة « صورته » .

ان قراره بحظر استيراد البترول الايراني الى الولايات المتحدة لا يتفق تماما مع القول بأن هناك أزمة طاقة يعاني منها الشعب الأمريكي . وقراره بتجميد أرصدة ايران من الدولارات داخل أمريكاوخارجها لا علاقة له بالثقة المطلوبة للنظام النقدي في وقت تطمئن فيه الدول المنتجة للبترول الى سلامة ودائعها في الدولار رغم انخفاض سعره المستمر . وقراره باجراء مناورات بحرية وجوية كبرى لأسطول المحيط الهندي

في بحر العرب قرب مداخل الخليج يتصادم مع الادعاء بأن الخطر على الخليج يجيء من الاتحاد السوفيتي .

وفي كل الأحوال ، فان تلك كلها قرارات تزيد كثيرا عما تقتضيه الظروف الموجبة لها .

لكن الهدف لم يكن سياسيا أو اقتصاديا .

وانما كان الهدف الرئيسي أن تنجح هذه الاجراءات في أن تعيد ما أخذته استفتاءات الرأي العام وتقارير قنوات التليفزيون من « صورة » كارتر .

أن يبدو في « صورة » جديدة أدعى الى الايحاء بالقوة وأنطق بالحزم والعزم والجبروت الشديد !

معركة الانتخابات ما زال أمامها سنة ... وسوف تكون معركة سياسة « بالصور » - السياسة الالكترونية .

والحقبة القادمة بعدها سوف تكون الشيء لأننا على أبواب عصر غريب ... عصر خطر في نفس الوقت ، لأن ردود الأفعال فيه لا تجيء مطابقة للأفعال ، ولكن تجيء من منطق آخر سابح في الهواء مع عوالم الالكترونات !!* .

---

* كان نجاح « رونالد ريجان في هذه الانتخابات بالدرجة الأولى نجاحا تليفزيونيا لممثل قديم عرف كيف يواجه العدسات ويتصرف أمامها طبيعيا وبسيطا !

آفاق الثمانينات (٥)

قوى تؤثر على القرار الأميركي وتوجهه

في كل مرة قصدت فيها الى الولايات المتحدة الأمريكية - بادئا في العادة بنيويورك - أحاول دائما أن أستبقي صباحا بأكمله خاليا من أي ارتباط. في ذلك الصباح أتجه من فندقي الى الميناء أحجز لنفسي تذكرة على احدى البواخر الصغيرة الطوافة التي تدور من حول جزيرة «مانهاتن»، وهدفي من هذه المرحلة - التي تستغرق قرابة ثلاث ساعات - مزدوج:

أن أتأمل جزيرة «مانهاتن»، وهي بؤرة الجهاز العصبي للولايات المتحدة، وأترك بصري يسرح على خط الماء والسماء ويستذكر ما كان وما هو كائن وراء الكتل الضخمة من ناطحات السحاب عارفا أن هذه الكتل من الحجر أو من الحديد هي رموز لقوى هائلة بينها ما هو قديم وبينها ما هو جديد. وفي الواقع فان ظهور ناطحات سحاب لم تكن هناك آخر مرة هو في الواقع اشارة لا تخطىء على تبديل وتغيير في المواقع والمراكز المؤثرة على الحركة والاتجاهات في الولايات المتحدة.

هذا هدف.

والهدف الثاني أن ألقي نظرة سريعة على تمثال الحرية الشهير. والباخرة الطوافة حول «مانهاتن» تهدىء من سرعتها - تقليديا - أمام التمثال وتقترب منه ثم تبتعد عنه ثم تعود اليه مرة أخرى لكي تعطي ركابها فرصة رؤيته من أكثر من زاوية، حتى تشبع عيونهم من رؤية هذا الرمز الجليل.

وفي هذه الزيارة الأخيرة لنيويورك كان رفيقي على الباخرة دبلوماسيا مقتدرا من أكفأ دبلوماسي العالم الثالث ومن ألمعهم ذكاءً. وعندما وصلنا أمام تمثال الحرية وراحت الباخرة تقترب منه وتبتعد عنه لتعود اليه مرة أخرى، كانت حماسته قد وصلت الى ذروتها.

كنت أتأمل التمثال صامتا والخواطر تتزاحم في رأسي، ولكن الكلمات راحت تتزاحم على شفتيه ليقول لي:

- هل ترى هذا المشهد المجيد؟ هل تستطيع أن تتصور مشاعر الآلاف

والآلاف من المهاجرين الجدد من العالم القديم حين وقعت عيونهم أول مرة على هذا التمثال ، وأدركوا أنهم ـ أخيرا ـ وصلوا الى دنيا مختلفة ، وأنهم فيها أحرار من كل ما هربوا منه وتركوه وراءهم وتجشموا في سبيله أهوال عبور المحيط في عصر الشراع ؟ تركوا وراءهم كل صنوف الاضطهاد والعذاب . . . الاضطهاد الديني والسياسي والقومي والعنصري . . . عذاب الفقر والعجز واليأس والذل . هنا حريتهم في عالم جديد ، وهنا فرصتهم لميلاد ثان في قارة بكر لا تضع قيدا على آمالهم وطموحاتهم ، وانما هي تقول لهم من أول لحظة : السماء هي الحدود !

هل تستطيع أن تتصور ؟ !

وقلت لرفيقي على الباخرة الصغيرة الطوافة :

- نعم أستطيع أن أتصور . لكن المشكلة أن تمثال الحرية أمامنا جزء من الصورة ، لكن جزيرة « مانهاتن » بناطحات السحاب العملاقة بقيتها . . . قل لي ، هل ترى علاقة بين تمثال الحرية وبين خط الأفق على جزيرة « مانهاتن » حيث مكاتب ومقار الشركات الدولية الكبرى ، والبنوك ، ومراكز الصناعة والتجارة والمال والأعمال ، وكلها لا تقنع بأقل من السيطرة على العالم كله ؟

هل ترى علاقة بين جانبي الصورة ؟

تمثال الحرية وتقاطيع وجهه المبشرة والهادية أمامنا ، وجزيرة « مانهاتن »وكل ما عليها وراءنا . . . كلاهما جزء من الصورة الأمريكية ، وكلاهما رمز لزاوية من زواياها ؟ . . . هذه هي المشكلة .

المشكلة أنه مجتمع بناه هؤلاء الهاربون من الاضطهاد والعذاب والباحثون عن الحرية والميلاد الجديد على الأرض البكر .

الغريب أنهم بنوا مجتمعا يتحدث عن المبادىء في حرارة ، ولكنه في نفس الوقت يمارس العنف بقوة .

مجتمع قادر على التجدد والتجديد بحيوية خارقة ، لكنه أيضا مجتمع يملك شهية للعدوان تثير الفزع والرعب .

لا أشير الى ابادة الهنود الحمر لاخلاء الأرض من سكانها الأصليين ، تلك حكاية قديمة ، ولا أشير الى استعباد الزنوج لاعادة بناء الأرض على حساب عرق الآخرين وكرامتهم ودمائهم ، تلك هي الأخرى حكاية توشك أن تصبح قديمة ، دعني أضيف أن الحكايات القديمة لا تذهب الى النسيان وانما هي كامنة . . . غارقة في أعماق الوجدان . . . ومع ذلك فأنا كما قلت لك لا أتحدث عن الماضي ، ولكني أتحدث عما يجري الآن في العالم المعاصر والدور الأمريكي فيه .

أعترف لك أن التجربة الأمريكية تحيرني ما بين تمثال الحرية و « مانهاتن » .

هناك جوانب في التجربة الأمريكية تثير الاعجاب والانبهار . . . وهناك جوانب أخرى تثير الغضب وتستفز المقاومة حتى للدفاع عن النفس .

وأتساءل أحيانا كيف حدث ذلك التناقض ، وما هي دواعيه ، وأهم من ذلك ما هي نتائجه والى أين يدفع بنا جميعا ؟

كيف تحول آباء الديمقراطية الى أعداء لها ؟ . . . وكيف تحول المبشرون الى أعداء لكل أمل في الخلاص ؟ !

المذهل أن التحول ليس كاملا ، وانما يعيش النقيضان في نفس الكيان كقصة الدكتور « جيكل » ومستر « هايد » . . . كأنما أمريكا اثنان في واحد .

المبادىء موجودة ، لكن العنف هو القانون .
والمبشر ما زال يدعو الى الحرية ، ولكن شريعته هي العدوان .
أليس ذلك غريبا . . . مذهلا ؟!

□ □ □

قلت لرفيقي على الباخرة التي كانت قد بدأت تدير ظهرها لتمثال الحرية وتبدأ طوافها حول جزيرة « مانهاتن » . . . تحت الكبارى الضخمة من الصلب تربطها بغيرها من الجزر أو تصل بينها وبين جسم القارة الشاسعة . . . وعلى

مرأى من خط الأفق حيث تتجاور وتتلاصق ناطحات السحاب العملاقة تكبر وتتجسم كتلتها بمقدار ما تقترب منها الباخرة لحظة بعد أخرى - قلت له :

- لك أن تختار أية ناطحة سحاب منها . . . قصتها هي قصة أكبر وأخطر القوى في الولايات المتحدة في الأمس وفي اليوم وغدا . . . أيها تريد ؟ مجموعة ناطحات « روكفللر » . . . التوأمين الشامخان لمبنى مركز التجارة الدولي . . . ناطحة « كريزلر » . . . ناطحة « جنرال موتور » . . . ناطحة بنك « تشيز مانهاتن » . . . أيها تريد ؟ . . . هل ترى من بعيد هذه الناطحة من الزجاج الأسود . . . مقر « موبل اويل » . . . بجوارها هناك مبنى صغير لا يكاد يبين من هنا . . . هو مركز « كارنيجي » للفنون . . للموسيقى بالتحديد . . . ما رأيك لو أخذناه كنموذج ؟ . . أتصور أن قصة « آندرو كارنيجي » تروي قصة الولايات المتحدة وتشرح الكثير من متناقضاتها .

دعني اروي لك قصته . . . انك تعرفها بالتأكيد ، ولكني معك أريد أن أتوقف عند المشاهد ذات الدلالة الخاصة في القصة .

مهاجر الى أمريكا - الى الأرض الموعودة - في سن الثانية عشرة ، هارب من اسكتلندا مع أسرته - قبل انتصاف القرن الماضي - فرارا من طغيان « الملوك والجيش والبوليس » كما قال هو فيما بعد . . . كان أبوه في اسكتلندا عامل غزل يدوي ، وفي الأرض الموعودة التحق الصبي بوظيفة عامل تلغراف . . . كانت ثورة بناء السكك الحديدية في الولايات المتحدة على وشك أن تبدأ ، وكانت خطوط التلغراف ملازمة لاتجاهات خطوط السكة الحديد ، وهكذا كان اهتمام « آندرو كارنيجي » بالصلب . بدأ بحراسة القضبان بجوار كشك التلغراف ، ثم انتقل الى توريد القضبان ، ثم انتهى الى صناعة القضبان ، وبحافز التوسع والانتشار الذي يدفع الباحثين عن الفرصة الجديدة في العالم الجديد أصبح « كارنيجي » صاحب مصنع صلب . . . ينتج قضبان السكك الحديدية .

مع الحرب الأهلية في أمريكا ، ومع الدور الذي لعبته السكك

الحديدية ، توسع « كارنيجي » وانتشر ، وأصبح مصنعه في « بيتسبرج » واحدا من أكبر مصانع الصلب في أمريكا ، لكنه كان ما زال وفيا للمبادىء التي دفعته الى الهرب من أوروبا والفرار الى العالم الجديد . . . عالم المبادىء والفرص المفتوحة . في ذلك الوقت راح يقول : « من دواعي اعتزازي بأمريكا أنه ليس لديها سفينة واحدة صالحة للحرب . . . ما زلت بنفس الأفكار التي جئت بها من أوروبا . . . لا نريد الملوك ولا الجيوش ولا البوليس » .

لكن أمريكا كانت تستعد لمواجهة أسبانيا في الجنوب .

وفي رئاسة « كليفلاند » في نهاية القرن الماضي ، كان وزير الأسطول الأمريكي يحاول عبثا مفاوضة « كارنيجي » لكي ينتج في مصانعه ألواحا من الصلب لتدريع السفن الأمريكية التي كان يجري تجهيزها للحرب . وكان « كارنيجي » مصمما على الرفض ، مبادئه ومبادىء أمريكا لا تسمح له بأن يربح مالا من تجارة الحرب . لم يطل تردده غير شهور حتى ذهب ذات يوم الى « ويتني » وزير الأسطول ليقول له : « لا يرضيني بالطبع أن تضطر أمريكا لاستيراد الصلب اللازم لتدريع سفنها من الخارج . . . اني فكرت وقررت . . . ضميري مستريح لأن ألواح الصلب ليست مدافع على سبيل المثال » .

دخل « كارنيجي » في صناعة الدروع للسفن ، وبعد شهور كان يقول : « هناك ملايين كثيرة ، كثيرة جدا في صناعة الدروع » . وأصبحت مصانعه شبه متخصصة في صناعتها ، ليس فقط لأمريكا ولكن للتصدير ، وكان رأيه « ان انتاج الدروع للتصدير سوف يساعد مستوى الكفاءة في انتاجها على حساب آخرين » - لكن سنة ١٨٩٣ تجيء واذا رجل المبادىء مقدم للتحقيق لأن الدروع التي باعها للأسطول الأمريكي لم تكن طبق المواصفات ، وكانت ملأى بثقوب كثيرة في الصلب جرت معالجتها على السطح لأخفاء عيوب كان يمكن أن تكلف آلاف البحارة حياتهم . . . وتمكن « كارنيجي » من تسوية الموضوع بعد أن رد للأسطول الأمريكي عشرة في المائة من مجمل ما أخذه منه ثمنا لما باعه اياه من الدروع .

لم تمض الا سنوات حتى كان « كارنيجي » أكبر منتج للمدافع في أمريكا ، وحين بدا ذلك غريبا ازاء « مبادئه » لم يجد ما يدافع به عن نفسه غير قوله :

« انني لا أحب صناعة المدافع ... لا يغريني الربح بصناعتها ، لأن الربح فيها قليل ، ولكن ما يغريني بها هو صناعة القنابل ... الربح كله في القنابل » .

لكن « كارنيجي » كان رغم ذلك ما زال داعية للمبادىء وللحرية وللسلام .

بتأثير المبادىء عرض على أسبانيا أن يدفع لها ٢٠ مليون دولار لكي يشتري منها جزر الفلبين وتحصل على استقلالها تحت حماية الولايات المتحدة !

بتأثير الايمان بالحرية اشترى قصرا فخما في لاهاي وقدمه ليكون مقرا لمحكمة العدل الدولية في لاهاي ، ثم عرض أن يضيف من عنده مرتبات اضافية لقضاة محكمة العدل الدولية حتى يسارعوا بنشاط الى الفصل في النزاعات الدولية التي يمكن أن يتطاير منها شرر يقرب الخطر .

بتأثير المحبة للسلام انشأ « مؤسسة كارنيجي » المشهورة ، ترعى الفنون وتساعد على رقي القيم الانسانية حتى تفتح الأبواب أمام السلام !!

هذا مجمل قصة « كارنيجي » .

هل يمكن أن يكون هناك تناقض أكثر من هذا التناقض ؟ هل يمكن أن يكون هناك خلط أشد من هذا الخلط ؟

ومع ذلك فقصة « كارنيجي » هي قصة كل اسم من الأسماء الكبيرة التي تحملها هذه الناطحات للسحاب التي نراها أمامنا الآن .

« روكفلر » ، « فورد » « كريزلر » ، « ديبون » ، « مورجان » - اختر أي أسم تشاء وسوف تجد وراءه قصة مشابهة .

لاجئون ركعوا على الأرض أمام تمثال الحرية حينما وقعت عيونهم لأول مرة عليه ، ثم انطلقوا بعد ذلك الى داخل القارة يبحثون عن الفرصة على أساس أن السماء هي الحدود .

وكانت مجموعة القيم التي أفرزها التفاعل بين دواعي الهجرة الى أمريكا . . . وسوانح الفرص في أمريكا - مجموعة قيم متناقضة ومعقدة .

باسم المسيحية راحوا يطهرون الأرض من كل الوثنيين . . . الهنود الحمر .

باسم الديمقراطية أصبح لهم الحق في استغلال عرق ودماء الزنوج !!

باسم الفرص التي لا حدود لها غير السماء - لا بد أن تتوسع وتنتشر . . . تتوسع وتنتشر باستمرار . . . اذا لم تخطف الفرصة فان غيرك سوف يخطفها قبلك . . . اذا لم تتوسع وتنتشر فانك سوف تتقلص وتنكمش .

التوسع والانتشار باستمرار أنشأ مجتمعا يملك شهية مفتوحة للاستهلاك بغير شبع .

نتيجة للتوسع والانتشار والاستهلاك فان المجتمع الأمريكي استهلك فيما مضى من هذا القرن أكثر مما استهلكته البشرية كلها قبل ذلك من المواد الخام . . . هو وحده الأن في العالم يستهلك أربعين في المائة من المواد الخام التي تمنحها الطبيعة للجنس البشري كله !

مجتمع يتوسع وينتشر . . . ويستهلك أكثر مما ينتج . . . وكان ذلك هو الطريق الى محاولة الخروج من القارة لبسط السيطرة على العالم .

تطور منطقي . . . طبيعي لكنه لا يخلو من مفارقة لعلها من أغرب مفارقات التاريخ .

مجتمع الهاربين من الملوك والجيوش والبوليس . . . الناجين بمبادئهم من الاضطهاد والباحثين في الأرض البكر عن الفرصة الجديدة لحياة جديدة يعودون مرة أخرى الى عبور المحيط الى العالم القديم غربا وشرقا : هم الأباطرة الجدد ،

وهم الجيوش النووية ، وهم البوليس للعالم كله تحت اسم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية !

طلائع هذا الزحف المضاد كله ، رجال من أمثال « آندرو كارنيجي » ، أصحاب مؤسسات مالية وصناعية كبيرة ، كبيرة الى درجة أنها أصبحت أقوى من الدول . . . أصبحنا نسميها « الشركات المتعددة الجنسيات » .

كلها مثل « كارنيجي » ، صنعت المدافع وباعتها ، وقامت بالغش في صنع الدروع ، وكدست الثروات من عذاب الملايين ومن استغلال ثرواتهم - ومع ذلك فكلهم - بغير استثناء تقريبا - حاولوا تغطية ما فعلوه في النهاية بمؤسسات تحمل أسماءهم وترفع شعارات المبادىء والحرية والديمقراطية والسلام .

□ □ □

لو أنني سئلت الآن :

- ما هي القوى التي ستحكم الولايات المتحدة وتتحكم في سياستها في الثمانينات ؟

لقلت بغير تردد :

- سوف يكون التأثير الأكبر والأخطر لثلاث قوى .

ثلاث قوى لا علاقة لها بالسلطات الدستورية الثلاث التي قد تخطر لأول وهلة على البال عندما يكون الحديث عن ثلاث قوى على وجه التحديد .

القوى الثلاث التي أتحدث عنها لا علاقة لها بالسلطات التي تتحدث عنها الدساتير ، لا علاقة لها بالرئيس - قمة السلطة التنفيذية - ولا علاقة لها بالكونجرس - تجسيد السلطة التشريعية - ولا علاقة لها بالمحكمة العليا - رمز السلطة القضائية .

لا علاقة لها بهذا كله مما وضعه الآباء الأول المؤسسون للولايات المتحدة

والمبادىء التي توهجت في ضمائرهم . . . علاقتها بشيء آخر هو مجموعة القيم التي أنتجتها الفرصة المفتوحة ، ليس لها غير حدود السماء . . . مجموعة القيم التي تدفع الى التوسع والانتشار والاستهلاك دائما وباستمرار !

وانما القوى الثلاث التى أتحدث عنها بالتحديد في الثمانينات هي :

١ - قوة صناعة « الصور » (تحدثت عنها بالتفصيل من قبل) ، وهذه سوف تتولى صياغة المشاعر الأمريكية والمزاج الأمريكي والمناخ العام في الولايات المتحدة في الثمانينات .*

٢ - قوة الشركات الدولية الكبرى - معظمها أمريكي - والأجهزة القادرة بطبيعتها وطبائع الأمور على أن تخدم هذه الشركات (هذه هي القوة التي سوف تنبع منها وتتمثل فيها ارادة الفعل الأمريكي في الثمانينات) .

٣ - قوة مؤسسات الأبحاث والدراسات السياسية والاستراتيجية التي ساهمت الشركات الدولية الكبرى بالنصيب الأكبر من تكاليف انشائها واعتمادات تشغيلها (هذه هي القوة التي ستؤثر أكثر من غيرها على تشكيل وتوجيه العقل الأمريكي في الثمانينات) .

□

قلت انني تحدثت تفصيلا من قبل عن قوة « صناعة الصور » ولا أجد حاجة أن أضيف تفصيلا زيادة عما قلت .

ولهذا أنتقل الى لمحة سريعة عن القوة الثانية المؤثرة في الثمانينات . قوة الشركات الدولية الكبرى والأجهزة القادرة على خدمة هذه الشركات ، فهذه كما اتفقنا سوف تكون القوة التي تنبع منها وتتمثل فيها ارادة الفعل الأمريكي في الحقبة القادمة .

---

* كان « هنري كيسنجر » أخيرا في زيارة لمنطقة الشرق الأوسط لا عمل له فيها غير مرافقة « بايلي » رئيس مجلس ادارة شركة « سي . بي . اس » !

ولعل الشرق الأوسط - قبل أي منطقة أخرى في العالم - ساحة تظهر فيها - على المكشوف تقريبا - قوة هذه الشركات الدولية الكبرى والأجهزة القادرة على خدمتها .

ليس سرا أن السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط يوجهها ويديرها تحالف يضم شركات البترول - الأخوات السبع كما يسمونها - ثم شركات صنع وبيع السلاح ، ثم كتلة بنوك تمسك في يدها بنصف مال العالم كله ، وأخيرا وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والتوابع الدائرة في فلكها .

لو أخذنا أيران كنموذج - دفعا لأية حساسيات قد تنشأ لو كان النموذج غيرها - فماذا نجد ؟

بدأت الأزمة الايرانية الحديثة في بداية الخمسينات من رغبة الشركات الأمريكية الكبرى في الحصول على النصيب الأوفر من بترول ايران (أهم المواد الخام في عملية التوسع والانتشار والاستهلاك) .

وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، ومسئولها الأول في الشرق الأوسط وقتها « كيرميت روزفلت » - هي التي مولت وخططت ونفذت مؤامرة الانقلاب على الثورة الوطنية بقيادة الدكتور « محمد مصدق » (كانت المخابرات الايرانية « سافاك » طوال ربع القرن الأخير هي ظل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فوق ايران) .

وبعد نجاح الانقلاب تحولت ايران الى حلم عظيم لكل شركات بيع السلاح ، حتى أن العقود التي ألغتها الثورة الايرانية لشراء السلاح من أمريكا كانت تصل الى ما يتعدى ثلاثين بليون دولار للسنوات الثلاث القادمة .

كل تلك حقائق وليست آراء . . . وكونها حقائق يجعلها شواهد لا مجال للشك في أمانة ما تدل عليه وتشير اليه .

ان العلاقة بين هذه العناصر في هذا التحالف منطقية : امتلاك أكبر قدر من موارد البترول مطلب أمريكي مؤكد ، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية

التي خرجت منها الولايات المتحدة قوة سيطرة دولية كبرى .

ووسائل السيطرة في العصر الجديد وضروراته لم تكن نفس الوسائل القديمة التي عرفتها ومارستها امبراطوريات سابقة ... وهكذا فرض العمل الخفي نفسه بديلا عن العمل المسلح المكشوف .

ثم ان الولايات المتحدة تحتاج الى أن تصدر سلعا بدلا مما تحصل عليه من مواد أولية ، والسلاح سلعة جاهزة خصوصا وأنه يشتري ولاءات سياسية ، ثم هو يؤدي الى نمو قوى مهيأة لكي تلعب دور رجل البوليس في اقليمها .

ثم يأتي دور المال ، وهو في الحقيقة واصل ما بين كل الحلقات ورابط سلسلتها . تذكر من هم الذين يضغطون من أجل شاه ايران وحقه في حماية الولايات المتحدة ، أولهم « دافيد روكفللر » وثانيهم « هنري كيسنجر » .

« دافيد روكفللر » بوصفه رئيسا لمجلس ادارة بنك « تشيز مانهاتن » ، و« هنري كيسنجر » بوصفه مستشارا سياسيا لهذا البنك !

تداخل ملفت للنظر ولكنه ليس أول مثال صارخ لنوعية العلاقات بين أطراف هذا التحالف .

« كيرميت روزفلت » رجل المخابرات الذي نفذ الانقلاب على « مصدق » أصبح مديرا لاحدى شركات البترول الكبرى - « ماكون » رئيس مجلس ادارة مجموعة شركات بترول ضخمة ، أصبح في وقت من الأوقات مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية - « ريتشارد هيلمز » مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لخمس سنوات ، أصبح لخمس سنوات تالية سفيرا لأمريكا في ايران !!

ولو حاولنا تتبع أثر تحالف البترول والمخابرات والسلاح والمال خارج ايران - وفي بقية منطقة الشرق الأوسط - لوجدنا عجبا !

□

نصل الى القوة الثالثة : قوة مؤسسات الأبحاث والدراسات السياسية والاستراتيجية .

صحيح أن معظمها أنشيء ومول بواسطة الشركات الدولية الكبرى ، ومؤسسة « راند » في « سانتا مونيكا » على مشارف لوس آنجلوس مثال بارز وشهير على هذه الحقيقة - لكن فلسفة انشاء وتمويل هذه المؤسسات كانت تحتم اعطاءها نوعا من شبه الاستقلال الذاتي يتأكد به غطاؤها .

كانت هناك مجموعة أفكار لدى المؤسسين والممولين :

● مثلا ، انهم يريدون أن يرصدوا من أجل العلم كفاءة ثروات طائلة تكدست بوسائل يعرفها الله . . . ويعرفها الناس ، أو على الأقل بعضهم . وقد تصلح هذه الكفاءة فوق ذلك في أن تضفي على أصحابها نوعا من الاحترام المنشود (وقد نجح هذا الهدف الى حد ما ، واستفادت أسرة « روكفللر » مثلا من « مؤسسة روكفللر » معنويا بما يفوق كثيرا حجم ما دفعته لانشائها وتمويلها ماديا) .

الى جانب أن أموال مثل هذه المؤسسات العامة - للتعليم والفنون والأبحاث - معفاة كلها من الضرائب ، وبالتالي فانها قيمة لأصحابها تدفع تكاليفها ادارة الضرائب .

● مثلا ، انهم يشعرون أن قوة المفكرين والمثقفين في المجتمع الأمريكي قد تصبح عنصر رفض للكثير من قيمه وممارساته ، وبالتالي فان احتواءها واعطاءها المجال المناسب لكفاءتها والأجر الملائم لتطويق احتمالات تمردها - هو في حد ذاته استثمار عجز في خدمة القيم الأمريكية .

● ومثلا ، فانهم يشعرون أن الجهاز البيروقراطي في واشنطن مشغول بتصريف الشئون العاجلة عن التفكير في الاستراتيجية بعيدة المدى ، وهي ضرورة لازمة لمصالح دائمة تتعدى شواغل الساعة وتتخطاها ، وهكذا جرى تجنيد أقدر العناصر في الجامعات وأذكى العقول لكي تتخصص وتنقطع للتفكير

والتخطيط على المستوى الاستراتيجي والتكنيكي في كل المجالات : مجالات التجارة . . . مجالات الأمن . . . مجالات العلاقات الدولية .

ان كل هذه الأفكار نجحت بأكثر مما كان يقدر أحد ، فهي فضلا عما حققته من أهداف أصلية أرادها المؤسسون والممولون - توصلت الى حلول لمشاكل عويصة . . . منها على سبيل المثال تغذية الجهاز البيروقراطي بعناصر مقتدرة سبق اعدادها لأدوارها .

ان هذه المراكز هي التي قدمت لكل الرؤساء الأمريكيين في الفترة الأخيرة مستشاريهم لشئون الأمن القومي : « ماك جورج باندي » في رئاسة « كنيدي » ، و « والت روستو » في رئاسة « جونسون » ،و « هنري كيسنجر » في رئاسة « نيكسون » و « فورد » ، و« زبجنيو برجينسكي » في رئاسة « كارتر » .

هذا غير عشرات المساعدين والمستشارين يلفون حول هذه الشموس !

الى جانب هذه الحقيقة ، فان هذه المؤسسات أصبحت مورد خطط جاهزة لكل المواقف الطارئة والأزمات لرؤساء وادارات فاجأتهم هذه المواقف الطارئة والأزمات .

وعلى سبيل المثال فان أزمة الشرق الأوسط فاجأت « كارتر » في بداية سنة ١٩٧٧ ولم يكن يعتبرها من أولوياته المبكرة ، وهكذا وضعوا أمامه بسرعة مشروع مؤسسة « بروكينجز » للدراسات السياسية والاستراتيجية في واشنطن . وأصبح هذا المشروع لسنوات بمثابة « بوصلة » تحدد اتجاهات نظام « كارتر » ازاء أزمة الشرق الأوسط .

أصبحت هذه المؤسسات معملا هائلا تجري فيه عملية التلقيح بين « المصالح » وبين « القرار » ، حتى كادت أن تضيع وتتلاشى الحدود بين الاثنين !

□ □ □

ملخص ما قلت في هذا الحديث أن سياسة الولايات المتحدة في الثمانينات سوف تؤثر عليها ثلاث قوى :

● قوة صناعة الصور ، وفي مقدمتها التليفزيون .

● قوة الشركات الدولية الكبرى ، ومعظمها أمريكي .

● قوة مؤسسات التفكير السياسي والاستراتيجي التي تتفاعل فيها المصالح مع القرار .

ولو نظرنا الى المعركة الانتخابية التي بدأت قبل أوانها هذه المرة في الولايات المتحدة ، لوجدنا ظواهر ملفتة للنظر :

● « ادوارد كنيدي » ـ أبرز منافس لـ « كارتر » ـ هو الاختيار المفضل لمجموعة المصالح المالية الأمريكية الكبرى في شرق الولايات المتحدة المطل على المحيط الأطلنطي .

● « رونالد ريجان » - أظهر المرشحين الجمهوريين - هو الاختيار المفضل لمجموعة المصالح الصناعية الأمريكية الكبرى في غرب الولايات المتحدة المطل على المحيط الهادى .

● « جون كونالي » - المرشح الجمهوري الصاعد الآن - هو الاختيار المفضل لمجموعة شركات البترول المتمركزة في ولايته القديمة « تكساس » .

وسؤال أخير :

- و« كارتر » ؟

والجواب عليه :

- ان كارتر « نتيجة » مثيرة لقوة صناعة الصور . . رجل جاء من المجهول لكي يصبح رئيسا لأقوى بلد في العالم ، لأن صورته بدت بريئة بعد عنكبوت ادارة « نيكسون » وفضائح « ووترجيت » .

« كارتر » - كما قلت - « نتيجة » مثيرة لقوة صناعة الصور . . . وقد يكون « ضحية » - مثيرة أيضا - من ضحاياها ، لأن صورة « البريء » لم تستطع أن تكتسب ملامح « القادر » !!

. . . الا اذا أتاحت له الساحة الايرانية فرصة !* .

---

* أعطته « صور » أزمة ايران الفرصة لازاحة منافسه على ترشيح الحزب الديمقراطي « ادوارد كنيدي » ، ولكن « صور » الأزمة نفسها بعد ذلك أزاحته عن رئاسة الولايات المتحدة ، وترك مقعد الرئاسة خاليا لـ « رونالد ريجان » !

آفاق الثمانينات (٦)

مَصير الأمُم المتحدة ومُصير عابرة المحيطات "كوين ماري"

لا أعرف لماذا وجدت - هذه المرة في أمريكا - أوجه شبه بين مبنى الأمم المتحدة على شاطىء النهر الشرقي في نيويورك ، وبين عابرة المحيطات العجوز « كوين ماري » التي اشتراها مستثمر ذكي في لوس انجلوس وحوّل جزءا منها الى متحف عن تاريخها وحول علوم البحار ، ثم استغل ما تبقى من الباخرة ليكون فندقا عائما على الرصيف رقم ٢٠ في ميناء لوس انجلوس ؟ !

ما هي أوجه الشبه بين الاثنين ؟

كلاهما كتلة ضخمة عند شاطىء ، وان كان مبنى الأمم المتحدة على خط الماء ، بينما غاطس الباخرة العجوز نازل تحته .

كلاهما على أقصى طرف من الولايات المتحدة .. واحد على أقصى الطرف الشرقي ، والأخر على أقصى الطرف الغربي .

كلاهما ثابت في مكانه لا يستطيع أن يتحرك الا بمعجزة .

كلاهما من آثار عصر مجيد عدت عليه العوادي حين تجاوزته الأزمان .

كلاهما أصبح مزارا يذهب اليه الناس ليقطعوا الوقت أو ليدفعوا الملل ، وربما شهد أحدهما بين وقت وآخر ليلة احتفال لمناسبة من المناسبات .

كلاهما ما زال يحلم بذكريات أيام كانت وأحداث سلفت ونجوم أفلت بالموت أو بالنسيان .

كلاهما امتدت اليه يد البلى برغم محاولة الحفظ وحتى التحنيط لأن الحافظ

الحقيقي لأي حياة هو الحياة نفسها ، واذا جفت ينابيعها فليست تجدي أية عقاقير لاعادة الروح أو لتحنيط الجسد !!

كلاهما ما زال له « أميرال بحر » ينعقد له لواء القيادة - فوق كتل الحديد أو الزجاج الضخمة - وربما كان الفارق أن أميرال الباخرة العجوز أصابه اليأس فلم يعد يحاول ، وأما أميرال الأمم المتحدة - سكرتيرها العام « كورت فالدهايم » - فانه - بحسن النية - ما زال يحاول ، وما زال يحلم بتعويم المنظمة الدولية رغم كل الظروف !!

□ □ □

في زيارة لمبنى الأمم المتحدة هذه المرة لم أستطع أن أمنع نفسي من العودة بالذاكرة الى أول مرة دخلت فيها هذا المبنى المهيب سنة ١٩٥١ .

كان شعوري - وهو بالتأكيد شعور كل الناس غيري وقتها - هو أننا كنا في قلب العالم ، نستطيع بآذاننا أن نسمع دقاته ونستطيع بطرف أصبع أن نحس بنبضه .

أتذكر أنني حضرت جلسة كانت تناقش قضية الحرب في كوريا ، وكان طرفاها : المندوب الأمريكي ووزير الخارجية وقتها « دين آتشيسون » ، وأمامه المندوب السوفيتي الدائم « أندريه فيشنسكي » الذي كان أسطورة من أساطير المجتمع الدولي في تلك الأيام .

وأثناء احتدام المناقشة بينهما استطاع « فيشنسكي » أن يعثر على خطأ في التواريخ ورد في خطاب وزير الخارجية الأمريكي « آتشيسون » ، ولم يتجاوز ولم يرحم ، وانما بدأ رده على « آتشيسون » قائلا :

- انني أعلم يا سيدي الوزير أنك تعرف التواريخ جيدا ، ولكنك وقعت في الخطأ الذي يقع فيه آخرون غيرك حين يتركون لسكرتيريهم مهمة كتابة خطاباتهم السياسية . ولقد وقع في الخطأ ولم تتنبه أنت لتصحيحه ، وهكذا فاني لن أرد عليك تأدبا وانما سأرد عليه لأنه المسئول » .

ومن هذه البداية راح « فيشنسكي » ينسف خطاب « آتشيسون » نقطة بعد نقطة ، قائلا على سبيل المثال :

« وفي الخطاب الذي كتبه لك سكرتيرك يا سيدي الوزير قلت كذا وكذا . . . »

« وفي الخطاب الذي تركته لسكرتيرك يعده لك قلت كذا وكذا . . . »

« وفي الخطاب الذي سمعناه بصوتك وهو في الحقيقة من تأليف سكرتيرك قلت كذا وكذا . . . »

كل هذا وقاعة مجلس الأمن تضج بالضحك مع مطلع كل جملة في الخطاب ، ووزير الخارجية الأمريكي يتلوى ضيقا وحنقا .

وحين حاول « آتشيسون » أن يقاطع ، قال له « فيشنسكي » بهدوء :

- لماذا تغضب ؟ . . . انني لا أتهمك أنت بالخطأ ، ولكني أتهم سكرتيرك . . . فهل أصبحت له حصانة لا يجوز لي معها أن أناقشه ؟ !

كانت كل مشاكل العالم وقتها وأزماته في الأمم المتحدة .

ونتيجة لذلك فان وفود الدول ومندوبيها الدائمين في الامم المتحدة كانوا على أعلى المستويات ، وترتب على ذلك أن مبنى الأمم المتحدة أصبح ساحة تجرى فيها حوادث وتسوى فيها - أو بالقرب منها - نزاعات .

أيام كانت القرارات فيها . . . قرارات . . . وكانت حسابات الأصوات تعبيرا حقيقيا عن توازنات لها قدرة الفعل .

أيام كانت الأمم المتحدة فيها ملتقى للتيارات المؤثرة ، بل ومجمعا للقيادات على نحو ما حدث في اجتماع الجمعية العامة سنة ١٩٦٠ ، وحين رئي أن يكون انعقادها على مستوى رؤساء الدول ، وهكذا كان مبناها مسرحا لعمالقة العصر : « أيزنهاور » و« خروشوف » و « ديجول » و « ماكميلان » و « تيتو » و« عبد الناصر » و « نهرو » و « كاسترو » . وكان السكرتير العام للأمم

المتحدة هو « داج همرشولد » صاحب الموقف التاريخي في حرب السويس الذي وجد في نفسه الشجاعة أثناء تلك الأزمة ليقف ويقول علنا : « ان اثنين من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن - بريطانيا وفرنسا - قاما بانتهاك حرمة ميثاق الأمم المتحدة ، ولهذا فانني أضع استقالتي تحت تصرف مجلس الأمن » - وارتجت القاعة الضخمة ، وأحس كل المندوبين أن زلزالا يهز قواعد النظام الدولي عند الأساس .

□ □ □

هذه المرة في مبنى الأمم المتحدة ، لم يكن هناك أثر لتلك العصور كلها .

كان المبنى يستعد لبداية دورة جديدة من دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ولكن قضايا العالم الكبرى وأزماته كانت بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض .

قضية الشرق الأوسط تناقش هناك بين واشنطن والقدس والقاهرة .

قضية روديسيا تناقش هناك على الناحية الأخرى من المحيط في لندن .

قضية تحديد الاسلحة النووية تناقش هناك بين موسكو وواشنطن مباشرة .

قضايا الطاقة والمواد الخام والسيولة الدولية والتضخم العالمي والعلاقات بين العالم الصناعي والعالم النامي - كلها تناقش في أي مكان الا في الأمم المتحدة .

وقبل هذا كله سويت حرب « فيتنام » في قصر من قصور الضواحي قرب باريس .

لم يبق غير قضايا اليائسين الذين ضاقت بهم مجالات الحركة فاستعاضوا عنها بمنابر الكلام ، لعل صوتهم يصل الى أذن تصغى ولو مجرد اصغاء .

نتيجة لذلك تواضعت الدول في اختيار مندوبيها ، فيما عدا قلة قليلة من

هؤلاء المندوبين . بينهم من اختار الأمم المتحدة لأنه يريد أن يبتعد ، وبينهم من اختارها لأنها بالنسبة له مجال درس وبحث - لكن الأغلبية الساحقة من هؤلاء المندوبين لم يعودوا غير مجرد سفراء جاء دورهم للخدمة هناك ، وكان رأيهم أن « نيويورك تبقى في كل الأحوال أفضل من سفارة في موريتانيا أو نيبال أو جزر القمر !

وربما كانت رئاسة الوفد الأمريكي الدائم لدى الأمم المتحدة أوضح نموذج لمدى التواضع الذي وصل اليه اختيار المندوبين الدائمين للدول في الأمم المتحدة .

في يوم من الأيام كان رؤساء الوفد الأمريكي على مستوى مرشحين لرئاسة الولايات المتحدة كلها : « ادلاي ستيفنسون » مثلا ، و « هنري كابوت لودج » . . . أولهما خاض معركة الرئاسة مرتين عن الحزب الديمقراطي ، والثاني كان في وقت من الأوقات أظهر المرشحين عن الحزب الجمهوري .

بعدهما - على سبيل المثال - كان « آرثر جولدبيرج » هو المندوب الأمريكي الدائم ، وكان من أفراد الدائرة الضيقة لصنع القرار السياسي الأمريكي في عهد الرئيس « ليندون جونسون » .

لكن التواضع بدأ بعد ذلك .

بدأ بتعيين السفير « تشارلز يوست » مندوبا دائما و « يوست » سفير ممتاز لكنه بغير قاعدة سياسية .

ثم استمر الخط البياني في النزول ، وجاء « آندرو يونج » ، وكانت أهميته راجعة الى صداقته الشخصية لـ « كارتر » من أيام زمالتهما في السياسة المحلية لولاية « جورجيا » ، ثم ان تعيينه في هذا المنصب كان عملية استرضاء للزنوج الأمريكيين .

ولم يكن « يونج » من أساطين السياسة الأمريكية ، ولا كان من القريبين لدائرة صناع القرار السياسي الأمريكي ، وعلى أي حال فان « يونج » اضطر الى

أن يستقيل بعد واقعة لقائه السري - ! - مع مندوب منظمة التحرير الفلسطينية . وبعده انتقل المنصب الى أحد مساعديه - السفير « دونالد ماكهنري »

وكانت ميزة المندوب الجديد أنه زنجي - كأنما أصبح المنصب وقفا على الزنوج الأمريكيين لامتصاص نقمتهم ، خصوصا بعد أن فقد أحدهم ذلك المنصب الكبير في درجته . والغريب أن الصحافة الأمريكية وهي تحاول تعداد مناقب المندوب الجديد لم تجد له خبرة دبلوماسية الا أنه هو الذي تولى المفاوضات مع راقصة باليه في فرقة « البولشوي » السوفيتية . . . لجأ زوجها الى الولايات المتحدة وقال انها كانت تريد أن تلجأ معه ولكن القنصلية السوفيتية في نيويورك ضغطت عليها رغم ارادتها ووضعتها في طائرة تغادر مطار كنيدي الى موسكو . وقررت السلطات الأمريكية تعطيل سفر الطائرة حتى تتحقق من أن راقصة البالية السوفيتية تسافر بمحض ارادتها وليس بسبب اكراه وقع عليها ، وكانت مهمة الرجل الذي أصبح مندوبا أمريكيا دائما جديدا في الأمم المتحدة أن يسأل الراقصة عما اذا كانت بالفعل تريد السفر الى موسكو أو أنها مغلوبة على أمرها .

وسمع منها أنها تريد السفر . وهكذا انحلت عقدة دبلوماسية - وأصبح هو « مؤهلا » بعدها لخلافة « أندرو يونج » !!

□ □ □

وحين دخلت هذه المرة لتناول الغداء في قاعة المندوبين - وكانت فيما مضى تحفل بالنجوم على كل الموائد - تلفت حولي فلم أجد - تقريبا - وجها واحدا أعرفه ولو حتى من صورة على صفحة جريدة أو مجلة مقروءة .

بالعكس كان كل شيء في القاعة الواسعة يشير الى حقبة رمادية تلف الأمم المتحدة وتغطي معظم ما فيها ومعظم من فيها .

على الموائد كانت معظم الأحاديث عن توقع أن يحضر افتتاح الدورة

الجديدة للأمم المتحدة عدد كبير من وزراء الخارجية . . .

لماذا ؟

لأن كثيرين منهم قرب نيويورك . . . في « هافانا » عاصمة كوبا يشتركون في مؤتمر قمة الدول غير المنحازة ، وما بين « هافانا » ونيويورك رحلة قصيرة بالطائرة ، وهكذا فالأمم المتحدة محطة محتملة على طريق العودة من كوبا !

وكانت هناك أحاديث أخرى عن المناسبات الهامة المنتظرة . . . فالبابا « جون بول » الثاني سوف يزور مقر المنظمة الدولية ليلقي فيها خطابا بمناسبة زيارته لأمريكا . . . ثم أن « فيدل كاسترو » زعيم كوبا سوف يجيء هو الأخر ليلقي خطابا ثانيا يعبر فيه عن وجهات نظر الدول غير المنحازة التي تجمعت في « هافانا » وانتخبته رئيسا لمجموعتها لثلاث سنوات قادمة .

أي أن أهم المناسبات : خطاب . . ثم خطاب ثان ، ومن يعرف فقد يكون هناك في الموسم الجديد خطاب ثالث !!

وراح أحد مندوبي الدول يتحرك بين الموائد ، ويهمس في آذان مندوبين آخرين -

ولم يكن الهمس مشاورات كما ظننت لأول وهلة ، وانما كان الهمس لداع آخر أظنه يمثل محنة الأمم المتحدة أصدق تمثيل .

ان المندوب الدائر حول الموائد ممثل لاحدى دول العالم الثالث . وهذا الصباح - كما علمت فيما بعد - تلقى برقية من وزارة الخارجية في عاصمة بلاده تتضمن تعليمات مفاجئة له .

لقد حدث شبه انقلاب في السلطة في عاصمة بلاده ، وقررت السلطات الجديدة أن تستغني عن خدماته لأنها حسبته على النظام القديم . وهكذا جاءته التعليمات بأن يعتبر نفسه مفصولا . وراح يطوف بزملائه من المندوبين يرجوهم أن يساعدوه لدى سكرتارية الأمم المتحدة ليحصل على وظيفة فيها ، فهو لم يعد

يستطيع العودة الى وطنه ، ثم انه لا يعرف الى أين يذهب ولا ماذا يفعل بنفسه ابتداءً من الآن !

وربما كانت اللحظة المثيرة الوحيدة التي شهدتها في ذلك اليوم في مبنى الأمم المتحدة أن المندوب الدائم لاثيوبيا جاء منفعلا يقول :

- انني سمعت أن مصر سوف توجه الى اسرائيل بعضا من مياه النيل . . .

هل هذا صحيح ؟

ان مياه النيل ليست ملكا لمصر وحدها ، وانما هي ملك لعدد من الأمم تعيش على هذا النهر ، واذا كان لدى مصر فائض من مياهها لا تحتاجه فأولى بهذا الفائض أن يعود الى بقية أصحاب النيل ، وليس لاسرائيل .

وسمعت ملاحظته صامتا !

□ □ □

أتذكر أنني سألت « كورت فالدهايم » - السكرتير العام للأمم المتحدة - ذات مرة ونحن جالسين في مكتبه في مقر المنظمة الدولية :

- ما الذي جرى للأمم المتحدة ؟

وكان رد هذا الدبلوماسي المقتدر :

- ان الأمم المتحدة لا تستطيع الا أن تعكس أوضاع النظام العالمي . ونحن نحاول ، ولكن الظروف في منتهى الصعوبة .

وسكت « فالدهايم » لحظة ، ثم استأنف كلامه :

- أريد أن أسالك في شاغل يحيرني : انني أستطيع أن أفهم لماذا تفضل بعض القوى العظمى أن تتجنب الأمم المتحدة . . . ولكني لا أستطيع أن أفهم لماذا تنساق بعض الدول الصغرى في هذا السبيل ؟

الأمم المتحدة بالتأكيد أمان لها ، ففي نطاقها وتحت ظل ميثاقها تستطيع أن تقف على قدم المساواة مع الدول العظمى .

ان « فالدهايم » لم يكن يستطيع أن يفصح أكثر في هذه النقطة من الحديث ، ولكن الدكتور «محمود فوزي » - وهو الى جانب دوره الكبير في مصر كان واحدا من ألمع النجوم في آفاق الأمم المتحدة - كان أصرح وأوضح .

انني طرحت عليه نفس السؤال الذي طرحته من قبل على « فالدهايم » ولخصت له أيضا اجابة « فالدهايم » عليه ، وكان جواب السياسي الدبلوماسي المجرب كما يلي :

- أظن أن جزءا كبيرا من أزمة الأمم المتحدة يعود الى نفس هذه النقطة التي أثارها معك « فالدهايم » ، نقطة المساواة بين الدول العظمى والدول الصغرى .

ان السياسة الدولية ليست قضية مساواة ، وانما هي قضية موازين قوة .

لقد كانت مشكلة فاعلية الأمم المتحدة ظاهرة أمامي منذ الفترة التي كنت فيها مندوبا دائما لمصر في المنظمة .

مع كل يوم جديد كنا نستقبل أعضاء جدداً . . . شعوبا حصلت على استقلالها حديثا وكانت عضويتها في الأمم المتحدة بمثابة توثيق لاستقلالها ، ومع أن ذلك لم يكن صحيحا في بعض الحالات فان التزاحم على دخول الأمم المتحدة وصل الى نقطة اللاعودة .

حينما جرى تأسيس الأمم المتحدة كان عدد الأعضاء محدودا ، ومن ثم فقد كان هناك اطار محكم يمسك بعمل المنظمة .

الآن تضم الأمم المتحدة أكثر من مائة وخمسين دولة . . . والله وحده يعلم قوة حجم هذه الدول وفاعليتها ومدى استقلالها .

لكن الحقيقة تبقى في أنها أصبحت من أعضاء الأمم المتحدة .

ربما استطعت أن تقول أن ذلك نوع من الديمقراطية في مجتمع الدول ، ولكننا ننسى أن جوهر الديمقراطية هو قانون يحتكم اليه الجميع وينزل عليه الجميع .

القانون في المجتمع الدولي - غير القانون في مجتمع دولة واحدة - قانون معنوي ليست له سلطة اجبار ، وربما - أقول « ربما » - استطاع القانون بسلطة الاجبار في دولة واحدة أن يفرض المساواة بين الجميع ، ولكن القانون المعنوي في مجتمع الدول لا يستطيع .

وهكذا نستطيع أن تقول أن ديمقراطية الأمم المتحدة هي التي قضت عل فاعلية الأمم المتحدة .

هناك فارق كبير بين ما يجب أن يكون ، وبين ما هو كائن فعلا .

ما يجب أن يكون نتمناه جميعا ، ولكن ما هو كائن فعلا هو الذي يفرض أحكامه علينا .

هناك فارق في القوة بين بوليفيا مثلا وبين الولايات المتحدة ، وهناك فارق كبير في القوة بين جيبوتي مثلا وبين الاتحاد السوفيتي .

وحين تجد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي أن بوليفيا وجيبوتي تملكان نظريا نفس ما تملكه هي في مصائر العالم وفق منطق الأمم المتحدة - فلا بد أن نتصور أن هذه القوى العظمى سوف تذهب بمشاكلها الحساسة خارج هذا المنطق .

سوف تقول الولايات المتحدة ومعها الاتحاد السوفيتي : « لا نستطيع أن نضع قضايا السلاح النووي والسيطرة عليه تحت رحمة مائة وخمسين دولة » .

كانت تلك هي البداية .

والبدايات جرت وراءها ما لا نرى نهايته بعد !

□ □ □

في قاعة جلوس المندوبين في الأمم المتحدة جلست أرشف فنجان قهوة أسود وأتأمل أمواج النهر الشرقي وأعود ببصري الى القاعة المزدحمة من حولي ، وأسأل نفسي هذا السؤال الذي طرحته من قبل على « كورت فالدهايم » ، وطرحته فيما بعد على الدكتور « محمود فوزي » .

ماذا جرى للأمم المتحدة . . . وماذا ينتظر أن يجري لها خصوصا في الثمانينات التي نقف الآن على أبوابها ، وهل هناك أمل في صراعات محتدمة في المنطقة أن تجد لها مجالا في هذه المنظمة ؟

وخرجت من تأمل طويل بترتيب أفكاري على النحو التالي :

١ - ان انشاء الأمم المتحدة كان تعبيرا عن نظام دولي جديد ظهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وقام على علاقة توازن في القوة وصراع بين العقائد والمصالح بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . وفي السنوات الأولى لتأسيس الأمم المتحدة - معظم الخمسينات - كان النظام الدولي قلقا لأن حدود توازن القوى والصراع بين العقائد والمصالح لم تكن واضحة أو مستقرة .

وهكذا اعتصم أركان النظام الدولي الجديد بساحة الأمم المتحدة . . . فترة انتظار حتى تبين الحدود وتتضح المعالم وتستقر أوضاع القوة .

٢ - في نهاية الخمسينات وبداية الستينات ، وبالتحديد بعد أزمة السويس ثم أزمة الصواريخ في كوبا سنة ١٩٦٢ ـ أحست القوتان العظميان أن العلاقات بينهما أخطر بكثير من أن تترك في ساحة الأمم المتحدة ولديمقراطية أكثر من مائة دولة من أعضائها ، وهكذا بدأت عملية الخروج .

ثم تأكدت عملية الخروج من الأمم المتحدة - فيما أتصور - سنة ١٩٦٧ وبسبب أزمة الشرق الأوسط ونتيجة لها .

كانت الولايات المتحدة - أثناء الاعداد لمؤامرة سنة ١٩٦٧ - قد قطعت لاسرائيل وعدا بأن تعرقل صدور أي قرار من الأمم المتحدة يفرض عليها الانسحاب الى ما وراء خطوط العدوان ، أو يوجه اليها ادانة بسبب هذا العدوان .

وهكذا اعترضت الولايات المتحدة - بتصميم لم يتزحزح - كل محاولة في اطار الأمم المتحدة ، ولم يكن هناك مفر من انتقال أزمة الشرق الأوسط الى خارج هذا الاطار .

وفي الحقيقة فان جزءا كبيرا من الصراع في الشرق الأوسط تركز حول هذه النقطة ، فقد كانت الحركة القومية بقيادة « جمال عبد الناصر » في ذلك الوقت تحاول رد الأزمة الى اطار الشرعية الدولية ، في حين أن القوى على الجانب الآخر - الولايات المتحدة واسرائيل - بذلت كل جهدها لابقاء الأزمة بعيدا عن الأمم المتحدة . وأظن أن « جمال عبد الناصر » تنبه الى التغيير الجديد في الأوضاع مع قرار مجلس الأمن سنة ١٩٦٧ ، فقد أدرك وقتها أن قرار مجلس الأمن لن ينفذ بقوة الشرعية الدولية ، وانما بشيء آخر الى جانب الشرعية الدولية ، وهو موازين قوة اقليمية وعالمية تفرض على العدوان وترغمه على التراجع .

وفي كل الأحوال ، فان ذلك جميعه ساعد على الاسراع بعملية الخروج من الأمم المتحدة .

٣ - ان القوتين العظميين وجدتا في بداية السبعينات، أن قضية الحرب والسلام في هذا العصر هي مصيرهما ذاته ، وهكذا فانهما لم تكتفيا فقط برد وصد ديمقراطية الأمم المتحدة التي كان صعبا قبولها ، وانما وصل الرد والصد أيضا الى ديمقراطية الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن ذاتها ، وهي بريطانيا وفرنسا والصين الى جانب القوتين العظميين .

وهكذا لم تفقد الجمعية العامة للأمم المتحدة تأثيرها وحدها ، وانما ضاع الى جانب ذلك تأثير مجلس الأمن نفسه !

أصبحت الأمم المتحدة في الأوضاع العالمية الجديدة عبئا لا تريد القوتان العظميان أن تحملاه على الأكتاف أو على الظهور . قصارى ما أصبحت تصلح له الأمم المتحدة في هذه الأوضاع الجديدة أن تكون مجالا لتسجيل مواقف ، وفي أحسن الأحوال فانها قد تصلح لدور مكتب توثيق يضع الأختام على اتفاقيات

جرى التوصل اليها خارجه ، كما تفعل مثلا مصلحة الشهر العقاري في حالات التصرف بالملكية بين الأفراد .

الصفقات كلها تتم في الخارج ، وليس هناك بأس بعد ذلك من التوثيق في الداخل .

٤ - ان الأمم المتحدة أصابها في العصر الجديد ما أصاب وزارات الخارجية نفسها في كل بلد في هذا العصر الذي فقدت فيه الدبلوماسية دورها التقليدي القديم .

المندوبون الدائمون لدولهم في الأمم المتحدة هم موظفون في وزارات الخارجية لهذه الدول ، والسياسة الخارجية لمعظم الدول الآن - خصوصا للقوى الكبرى - لم تعد اختصاص وزارات الخارجية ، وانما انتقل هذا الاختصاص الى رئاسة الدولة .. رئيس الدولة في النظام الرئاسي او رئيس الوزراء في النظام البرلماني . ذلك لأن قضايا السياسة الخارجية تداخلت مع قضايا الدفاع والأمن القومي في الخارج والداخل ومع الاقتصاد والتجارة الى آخره .

ان الأوضاع تكاد الآن أن تستقر على أساس أن وزارات الخارجية تقتصر ولايتها على العلاقات غير الخطيرة مع الدول غير المؤثرة .

وأما حيث الخطر والتأثير فالأمر فيه كله لرئاسة الدولة وأجهزتها ، خصوصا بعد أن استحدثت الرئاسة في الولايات المتحدة ذلك المنصب الحساس : مستشار الرئيس للأمن القومي .

هناك اختصاص بقي بكامله بعد ذلك لوزارات الخارجية . . . اختصاص المراسم !

٥ - ان اختلاط السياسة الخارجية بالأمن القومي - الى جانب استحالة الحرب العالمية - فتح الباب على مصراعيه لدور الأجهزة الخفية وبينها المخابرات بكل أشكالها وبكافة أوجه نشاطها .

وعلى سبيل المثال فان الولايات المتحدة لم تحل نزاعها مع « مصدق » سنة

١٩٥٤ عن طريق المفاوضات ، وانما عن طريق انقلاب دبرته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

أسلوب المؤامرة الى حد القتل جرت ممارسته بعد ذلك مع كل قادة حركة التحرر الوطني : « جمال عبد الناصر » ، « أنديرا غاندي » ، « لومومبا » ، « الليندي » ، « كاسترو » الى آخره ، الى آخره . . .

ان التغيير لم يؤثر فقط على أجهزة ممارسة السياسة الخارجية . . . أجهزة الأمن بدلا من وزارات الخارجية - وانما امتد الى الأساليب أيضا : الأنقلاب والحرب الأهلية والرصاص والسم وهكذا .

ومع ضياع دور وزارات الخارجية ، ومع انتهاء عصر الدبلوماسية التقليدية ، تحولت الأمم المتحدة من ساحة ممارسة للصراعات الى شيء آخر . . . شبه ناد اجتماعي . . . أكاد أقول شبه ناد اجتماعي كل أعضائه على المعاش !!

□ □ □

والنتيجة :

- أي دور يمكن أن يكون للأمم المتحدة في الثمانينات ؟

والرد على هذا السؤال هو :

- أسهل الأشياء أن نرد على الفور بأن واقع الحال ينبئنا بأن دور الأمم المتحدة في الثمانينات سوف يظل - على أحسن الفروض - في حدود ما نراه الآن من أحوالها .

لكن مثل هذه الاجابة لا ينبغي قبولها ثم السكوت .

ان مخاطر الحقبة القادمة ، وهي حقبة معبأة بأسباب القلق والفوضى والعنف ، تحتاج الى الأمم المتحدة أكثر مما تحتاج اليها أية حقبة أخرى من الزمان .

تحتاج صراعاتها الى ساحة ، والى مجال لقاء ، والى قاعدة تفاهم ولا أقول قانون علاقات .

ان الدول الأكثر احتياجا لذلك كله هي الدول التي تكون الآن أغلبية الأمم المتحدة . . . التي تصنع ديمقراطية الأمم المتحدة .

ويجب أن نكون واضحين : ان ديمقراطية الأمم المتحدة ليست قادرة وحدها على تحقيق فاعلية الأمم المتحدة .

ليس مجرد حساب الأصوات هو ما يحتاجه مجتمع الدول في الثمانينات . . . وانما قبله حساب الخطوات ، والا أجهزت الثمانينات على بقايا ما تركته السبعينات في المبنى القائم على حافة النهر الشرقي في نيويورك !

آفاق الثمانينات (٧)

الاتحاد السوفيتي مستغرق في عملية مراجعة واسعة وعميقة

اذا كان التعامل مع الولايات المتحدة في الثمانينات سوف يكون مشكلة بسبب نمو مراكز جديدة حية وفوارة - الى حد الفوضى - فان التعامل مع الاتحاد السوفيتي في الثمانينات سوف يكون معضلة بسبب عوامل أخرى تكاد تكون نقيضا لذلك على طول الخط !

ان الاتحاد السوفيتي مقبل - أغلب الظن - على عملية مراجعة واسعة سوف تؤثر على حركته في الثمانينات . . . أقول مراجعة ولا أقول تراجعا ، لكي تكون الحدود بينة .

□

في بداية السبعينات كان الاتحاد السوفيتي يحاول تقصير خطوطه ، وفي الحقيقة فان محاولة تقصير الخطوط كانت قد بدأت بعد سقوط « خروشوف » مباشرة ، وربما كانت الحاجة اليها هي التي عجلت بهذا السقوط .

بشكل ما كان هناك احساس عام في الاتحاد السوفيتي بأن الوطن الأول للشيوعية الدولية قد تعرض لعملية استنزاف مرهقة كلفت شعوبه فوق ما تطيق احيانا .

أتذكر مناقشة مع أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، وكانت مرة من المرات النادرة التي سمعت فيها واحدا من مستوى القيادة في الاتحاد السوفيتي يتحدث بصراحة . قال لي يومها وهو لا يحاول أن

يتوارى خلف الشعارات أو التعبيرات الانشائية التي تشوب الأحاديث مع السوفيت في معظم الأحيان :

- نعم ، نحن في حالة استنزاف مستمرة ... أقولها لك كصديق . تعال معا نحاول أن نستعرض التاريخ .

ان الثورة السوفيتية قامت في بلد متخلف ، متخلف كثيرا عن كل شعوب أوروبا ، وفوق ذلك فانه قبل الثورة وتحت النظام القيصري كان معرضا لعملية استغلال بشعة بددت كثيرا من موارد شعوبه ، وضغطت الى أقصى حد على حقوق أهله كأفراد .

بعد الثورة - بكل مخاطرها - كانت هناك عملية الغزو الأبيض من الخارج ... تجمعت الرأسمالية كلها في أوروبا وأمريكا تحاول ضرب النظام الثوري بالقوة المسلحة ، مستخدمة ضباط الحرس القيصري ، ولولا معجزة « تروتسكي » في انشاء الجيش الأحمر ، لانهار النظام السوفيتي وانتهى أمره .

دخلنا بعد ذلك في العصر الستاليني الذي امتد ثلاث حقبات ، طيلة ثلاثين سنة . كان « ستالين » يريد أن يبني الشيوعية في بلد واحد محاصر ، وكان تركيزه على الصناعات الثقيلة وعلى الملكية الجماعية للأرض ، ونجح « ستالين » في بناء أساس للقوة السوفيتية ، ولكن الثمن الانساني كان فادحا .

ما كاد « ستالين » يفرغ من بناء أساس القوة السوفيتية حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ، واذا « هتلر » يتوجه الى الشرق ويشن حملة « بربا روسا » ضد الاتحاد السوفيتي ، وكانت النتيجة أن جزءا كبيرا من الامكانيات الجديدة للاتحاد السوفيتي تحول الى أنقاض ، الى جانب أكثر من عشرين مليوناً من زهرة شبابنا فقدوا أرواحهم قبل أن يتحقق النصر .

النصر على « هتلر » لم يعطنا فرصة لالتقاط الأنفاس ، لم تكد الحرب الساخنة تنتهي حتى بدأت الحرب الباردة وسباق التسلح النووي والاندفاع الى

الفضاء - ذلك كله لم يكن لنا خيار فيه ، وانما كان علينا أن نجري في المقدمة أو يدوسنا الآخرون بأقدامهم .

انتهى عصر « ستالين » ، وجاءت قيادة جماعية يتصدرها « خروشوف » لكن مجيء « خروشوف » تصادف في التوقيت مع ظهور تيار عالمي نشيط لم يكن في مقدورنا أن نعزل أنفسنا عنه ، خصوصا وأنه اتجه الينا في طلب المعونة ضد حماقات الاستعمار القديم والجديد ، انني بالطبع أتحدث عن حركة الثورة الوطنية .

لقد وجدنا أنفسنا من منتصف الخمسينات الى منتصف الستينات مطالبين بتسليح جيوش وبناء سدود وتشييد مصانع ، بل وتقديم معونات غذاء من قمح وغيره - في وقت كانت الزراعة السوفيتية فيه مشكلة .

سباق السلاح والفضاء الى آخره ، كان يكلف كل فرد سوفيتي قرابة ألف دولار في السنة .

والمساعدات الى الدول المطالبة بالتحرر الوطني - الاجتماعي والسياسي - تصاعدت بسرعة لم نكن نستطيع تقديرها ، ولم نكن نستطيع وقفها . وصلت ديون هذه الدول للاتحاد السوفيتي في سنوات معدودة الى قرابة أربعين بليون دولار ، أي أن كل فرد سوفيتي اقتطع من قوته ومن مستوى معيشته أكثر من ألفي دولار لدول مثل فيتنام وكوبا والهند ومصر واندونيسيا والكونجو الى آخره .

لاحظ أننا نختلف عن الآخرين . ربما كان الآخرون يعطون مساعدات ، لكن مساعداتهم لم تكن من جيبهم ، وانما كانت من فوائض عمليات الاستغلال التي يقومون بها في العالم الثالث . . . استغلال المواد الخام كالبترول مثلا ، ونظم التجارة الدولية كتجارة السلاح مثلا .

عندما دفعنا . . . دفعنا ، وعندما دفع الآخرون فانهم في الواقع لم يدفعوا .

النتيجة أن الشعب السوفيتي تنبه فجأة ، فاذا مستويات الحياة في أوروبا

الشرقية - فضلا عن أوروبا الغربية وعن الولايات المتحدة - أحسن بكثير من مستوياتها في بلاده .

كانت تلك يقظة مؤلمة ، ولكن الاتحاد السوفيتي لم يظهر آلامه علنا ، وانما حاول علاج أحواله بأسلوب مكتوم . وكانت تلك اليقظة هي التي أدت الى سقوط « خروشوف » والى مجيء قيادة جديدة ترى أن كل شيء - حتى القرار السياسي - يجب أن يخضع لحساب تكاليف .

القول بضرورة خضوع كل شيء لحساب تكاليف سهل في الكلام ، صعب في التنفيذ .

ففي تلك الفترة كانت للاتحاد السوفيتي استثمارات سياسية واقتصادية طائلة مبعثرة على رقعة العالم كله ، خصوصا في كوبا وفيتنام والشرق الأوسط .

المضي في السياسة السابقة جنون ، والتغيير المفاجىء فيها خطر ، خصوصا وأن الاستعمار راح يكشف ضرباته الموجهة الى حركة الثورة الوطنية كما رأيتم أنتم سنة ١٩٦٧ .

تأهبنا لدخول السبعينات والموقف بالنسبة لنا في منتهى الصعوبة . ان القيادة الجديدة ما لبثت أن وجدت نفسها حائرة بين الاتجاهات مشتتة بين الاجتهادات ، ولم يكن هناك من هو جاهز لمساعدتنا . . . أعداؤنا لم يكن لنا أن ننتظر منهم مساعدة ، وأصدقاؤنا لم يتمكنوا من اقناع أنفسهم بتفهم ظروفنا .

أستطيع أن أعترف لك - بغير خجل - أننا دخلنا السبعينات في حالة دوار .

شعوب تحس أنها استنزفت ، ولا تستطيع أن ترى ضوءاً في نهاية النفق كما يقولون » .

□ □ □

كان ذلك - كما قلت - أصرح حديث سمعته من مسئول سوفيتي على مستوى القيادة أو بقرب ذلك المستوى ، وعلى ضوئه فان خلفية القرار السوفيتي والمشاكل التي تعثر فيها هذا القرار في السبعينات تصبح قابلة للفهم .

ان كل سياسة في العالم ، في أي عصر وفي أي ظرف ، لها هدفان :

- محاولة تكبير مكاسبها من ناحية
- ومحاولة تقليل خسائرها من ناحية ثانية .

وعلى أساس مجمل الظروف التي حكمت خلفية القرار السوفيتي فان سياسة الاتحاد السوفيتي في السبعينات كانت تحاول على عدة محاور :

١ - تدعيم سياسة الوفاق مع الولايات المتحدة والوصول بهذه السياسة الى اتفاقيات متالية لتحديد الأسلحة الاستراتيجية - « سولت » - توقف السباق الجنوني على الأسلحة النووية وعلى حاملات هذه الاسلحة من الصواريخ والغواصات .

٢ - محاولة « فنلدة » أوروبا الغربية - تحييدها على نمط فنلندا - وذلك بشعورها بأنها مكشوفة أمام الحشد البري الهائل للقوة السوفيتية في أوروبا الشرقية (مائتي فرقة) ، ثم ادراكها بعد ذلك أن المظلة النووية الأمريكية عاجزة عن حمايتها لأنه لم يولد بعد ذلك الرئيس الأمريكي الذي يعرض نيويورك وواشنطن وسان فرانسيسكو وغيرها لخطر التدمير الشامل دفاعا عن بون وباريس ولندن .

٣ - انهاء الحرب في فيتنام بتسوية عادلة تؤكد حقوق الشعب الفيتنامي وتصون تضحياته ، وفي نفس الوقت تكون هذه التسوية تسوية آسيوية شاملة تعيد ترتيب موازين القوة في آسيا ، وترك هذه القارة الهائلة بعد ذلك لتفاعلات الحركة التاريخية ، مع التقليل من تأثير الصين بقدر ما هو ممكن على هذه الحركة التاريخية ، وذلك عن طريق تفاهم بين موسكو وطوكيو من ناحية ، وموسكو ودلهي من ناحية أخرى .

٤ - حصر الخطر في الشرق الأوسط حتى لا يؤدي الى صدام مباشر بين القوتين العظميين، ويكون ذلك عن طريق تسوية عادلة للصراع العربي الاسرائيلي تستعيد للشعب الفلسطيني بعض حقوقه المشروعة . كانت أزمة الشرق الأوسط - في رأي الاتحاد السوفيتي - جزءا من حركة التحرر العالمي ، وكانت وصفة الاتحاد السوفيتي لأصدقائه في حركة التحرر الوطني عموما هي : أكثر ما يمكن من التركيز على النضال السياسي وأقل ما يمكن من التركيز على العمل العسكري - الا في حالة الضرورة القصوى بالطبع . ونستطيع أن نتصور أن الاتحاد السوفيتي بهذه الوصفة لم يكن يريد أن يوفر على أصدقائه مخاطر حماقة القوة الأمريكية فقط ، وانما كان أيضا يريد أن يوفر على نفسه قسطا لا بأس به من الاستنزاف عن طريق السلاح (قدم الاتحاد السوفيتي في الفترة ما بين حرب ٦٧ وحرب ٧٣ ما قيمته ثمانية بلايين دولار من السلاح لأصدقائه ، في حين لم يسدد هؤلاء الأصدقاء أكثر من بليونين اثنين من ثمن هذه الصفقات) .

٥ - الاهتمام بالقوة البحرية على أساس أن التواجد في كل المحيطات يستطيع أن يكون رمز حضور حي للاتحاد السوفيتي في كل القارات والمواقف والأزمات . والحضور الحي في كثير من الاحيان يستطيع أن يكون بديلا عن التورط والانزلاق على أساس المنطق الاستراتيجي القائل بأن توافر القوة في حد ذاته قد يغني عن استعمالها .

وفضلا عن ذلك فقد كان هناك حلم الروس القديم بالمياه الدافئة ، والأمل في حجم أكبر من التجارة العالمية الذاهبة والقادمة على قمم الموج .

□ □ □

كانت هذه الخطوط لمحاور السياسة السوفيتية معقولة ، وأهم من ذلك كانت حذرة . كان فيها من حساب التكاليف أكثر مما فيها من حمى القمار حتى ولو كان الرهان على التطور الحتمي وعلى حركة التاريخ .

لكن المثل القائل بأنه « لا ينفع حذر من قدر » أصاب الاتحاد السوفيتي بأكثر مما أصاب غيره - في السبعينات .

بدأت السبعينات بقرار استراتيجي دخلت القيادة السوفيتية الى ساحته تجر أقدامها جرا ، وهو قرار زيادة التواجد السوفيتي - كما ونوعا - في مصر . وكان ذلك تحت ضغط من « جمال عبد الناصر » الذي أراد أن يرفع حدة أزمة الشرق الأوسط تمهيدا للحسم فيها بالحل أو بالحرب بحيث يتصاعد تأثيرها من المستوى الاقليمي - مواجهة بين مصر واسرائيل - الى المستوى الدولي - احتمال مواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

وتحركت أزمة الشرق الأوسط بسرعة بعد هذا القرار . . . زادت سخونة حرب الاستنزاف . . . تقدمت الولايات المتحدة بمبادرة روجرز . . . تم اتفاق على وقف اطلاق النار لثلاثة شهور . . . راحت مصر تخطط للعبور (خطة « جرانيت - ١ » و « جرانيت - ٢ ») ، وفي نفس الوقت راحت اسرائيل تقيم خط بارليف. كان مؤكدا أن الأزمة وصلت الى قرب نقطة حرجة لا بد عندها من مخرج بقوة الدبلوماسية أو بقوة السلاح .

في ذروة النقطة الحرجة جاءت صدمة رحيل « عبد الناصر » .

ابتداء من سنة ١٩٧٢ بدأت الرياح تهب على الشرق الأوسط من اتجاه مختلف .

● ١٩٧٢ جرى طرد الخبراء السوفيت من مصر .

● ١٩٧٣ وبعد حرب أكتوبر استبعد الاتحاد السوفيتي من عملية البحث عن حل في أعقاب توقف المعارك .

● ١٩٧٥ جرى الغاء المعاهدة المصرية السوفيتية .

أكثر من ذلك ، بدا أن هناك مخططا لمطاردة الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط . ففي شهور قليلة جرت في بعض بلدان المنطقة عمليات مماثلة لما جرى في مصر : جرى طرد الخبراء السوفيت من السودان ثم من اليمن الشمالية ثم من الصومال .

بالتوازي مع ذلك تعرض الاتحاد السوفيتي لحملة تشهير بدت لقياداته في موسكو بغير تبرير ، بل بغير مصلحة حتى لأصحابها .

اتذكر حديثا مع أحد خبراء اللجنة المركزية المهتمين بالشرق الأوسط والذين يطوفون بأرجائه طول الوقت ويعودون الى موسكو بتقاريرهم .

قال لي ذلك الصديق - وأنا أعتبره بالفعل صديقا :

- عندما كنت أذهب الى موسكو عائدا من الشرق الأوسط كانت الأبواب كلها تفتح لي ، حتى أبواب القادة على أعلى المستويات في الكرملين .

كنت أذهب فأجد نفسي مستدعى الى كل مكاتب الكبار ، وعشرات الاسئلة تنتظرني ، والاهتمام معبأ وراء كل سؤال .

أخيرا كنت أذهب الى موسكو فلا أجد كلمة واحدة في انتظاري . وأتقدم بطلب مقابلات ، وأنجح أحيانا في الوصول الى مكاتب قيادات على المستوى المتوسط ، وأشعر أن أصحابها يقابلونني للمجاملة أكثر مما يقابلونني تشوقا الى ما أحمله من الشرق الأوسط .

وأجدني مضطرا بعد قليل الى أن أفتح سيرة الحديث عن الشرق الأوسط ، وفي معظم الأحيان أشعر أنني أذكر سامعي بتفاصيل كابوس ثقيل يريدون نسيانه ويكرهون أن يذكرهم أحد بما أحسوا به خلاله من توتر وضيق .

أحدهم قال لي بوضوح ذات مرة :

- (. . . . .) هل تستطيع أن تعفيني من سماع ما عندك عن الشرق الأوسط ؟ !

قرب نهاية السبعينات كانت علاقة القوة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط قد دارت دورة كاملة .

في بداية السبعينات كان الاتحاد السوفيتي في قلب المنطقة ، وكانت الولايات المتحدة على حافتها .

وقرب نهاية السبعينات كانت الولايات المتحدة هي التي تحتل قلب المنطقة ، بينما أزيح الاتحاد السوفيتي الى حافتها !

□ □ □

قرب نهاية السبعينات كان المزاج العام على مستوى القمة في الاتحاد السوفيتي مشوبا بالكثير من المرارة . لم يكن السبب هو ما جرى في الشرق الأوسط وحده ، وانما تعددت الأسباب .

● قيادة تشابكت الخطوط في سياساتها وتعقدت ، لا هي قادرة على قبول المخاطرة ، ولا هي قادرة على فرض حساب تكاليف صارم يروض القرار السياسي ويخضعه . ثم هي قيادة متعبة مرهقة تقدمت بها السنون ـ متوسط العمر بين أعضاء المكتب السياسي سبعون سنة ـ وهي تتربع في النهاية على قمة جهاز حزبي وحكومي تحيط به البيروقراطية من كل جانب . وهي بيروقراطية بطيئة . عاجزة عن الاستجابة السريعة للتحديات . وفي أحسن الأحوال فانها تتصور أن اتجاه التاريخ البعيد يخدم أهدافها ، لكنها تنسى أن تفاعلات التاريخ السريعة والمتلاحقة قد تؤثر على تقديرات المدى البعيد .

● ان هذه القيادة وقفت عاجزة أمام ضرورات التجديد ، ولقد كان من المفارقات أن الرأسمالية - وهي المحافظة بالطبيعة - أعطت نفسها قدرة مخيفة على التجديد والتجدد ، في حين أن الشيوعية - الثورية - وصلت الى حالة من المحافظة أصبحت معها تخشى وتخاف وتحسب للحركة ألف حساب .

ظل « جروميكو » - على سبيل المثال - وزيرا للخارجية في الاتحاد السوفيتي . وفي فترة تولية الوزارة تغير أمامه على الناحية الأمريكية عشرة وزراء خارجية وخمسة مستشارين للرئيس الأمريكي لشئون الأمن القومي يتعاملون معه هم الآخرون . هو في مكانه لربع قرن يقول نفس الكلام ، وأمامه قرابة خمسة عشر رجلا جديدا يطالعونه كل يوم بشيء مختلف !

الغريب أن القديم على القمة في الاتحاد السوفيتي لم يلتفت الى هذه الظاهرة ، أو على الأقل لم يعطها الاهتمام الكافي فحسب ، وانما أكثر من ذلك

أحاط بالطلائع الجديدة في صفوفه وطوقها ثم انتهى الى تصفيتها .

كان المفروض أن العناصر الشابة الجديدة في المكتب السياسي - القمة في الاتحاد السوفيتي - سوف تكون هي القادرة على ازاحة القديم - لكن العكس حدث .

تمكن رجال من عمر « سوسلوف »و « بريجنيف » و « كوسيجين » - وكلهم بعد السبعين - من أن يحيطوا ويطوقوا ويصفوا رجالا من عمر « شليبين » و « مازاروف » و « بوليانسكي » - وكلهم حول الخمسين - من عضوية المكتب السياسي .

النجوم الآفلة غطت على النجوم الصاعدة - وهي ظاهرة محيرة !

● وزاد الشعور بالاستنزاف لدى جماهير الشعوب السوفيتية ، ولحقه شعور آخر مكبوت بنوع من الاحباط .

التطلعات المشروعة الى مزيد من الاستهلاك لا تجد التلبية الكافية ، وكذلك التطلعات المشروعة الى مزيد من الحرية السياسية .

ثم تبين أن مشاكل القوميات والأقليات لم تجد حلا لها كما كان مأمولا في مجتمع المساواة الكاملة .

أكثر من ذلك فان معدلات النمو النموذجية في مطلع السبعينات راحت تتناقص في نهايتها من عشرة في المائة الى ثمانية الى ستة ثم الى خمسة .

يحتاج الأمر الى استثمارات جديدة والى آفاق جديدة في الاستثمار .

الأموال السائلة التي تتدفق على العالم كله من البترول العربي تتوقف أمام الاتحاد السوفيتي . وسيبيريا - الأمل الكبير في مجال مبكر للاستثمار - تحتاج ليس فقط الى أموال وانما أيضا الى تكنولوجيا متقدمة .

● وخلال هذا كله فان العسكرية السوفيتية ، وهي المسئولة عن حماية وطن الشيوعية الأول ، بل الاتحاد السوفيتي في حد ذاته كوطن - تتزايد طلباتها .

في غيبة اتفاق له أول وله آخر لتحديد الاسلحة النووية - فان العسكرية لا تتوقف طلباتها .

الماريشال « أوستينوف » وزير الحربية - مع أنه مدني في الأصل - ما زال يريد صواريخ أبعد وأقوى .

والأميرال « جورشيكوف » قائد الأساطيل السوفيتية يريد حاملات هليوكوبتر أكثر وغواصات أسرع .

ثم ان - « جورشيكوف » - يريد سياسة خارجية مرنة تستطيع أن توفر لأساطيله في المحيطات موانىء تستطيع أن تتجه اليها قطعه البحرية لكي تحصل على مياه حلوة ، ولكي يحصل بحارتها على فرصة يمدون فيها أقدامهم براحة من مقاومة حركة الأمواج .

□ □ □

قرب نهاية السبعينات ، وحقبة من الزمان تسلم نفسها وتذوب في حقبة أخرى ، جلس أحد القادة السوفيت - في لحظة ضعف انساني - يفضي بهمومه الى صديق دولي له . كانت جلسة عجيبة ، كتبها ذلك الصديق الدولي لعضو القيادة السوفيتي في تقرير طاف بسرعة في عدد من عواصم الغرب وأحدث دهشة لدى الذين أتيحت لهم الفرصة للاطلاع عليه .

قال عضو القيادة السوفيتي :

- كيف نتعامل مع الولايات المتحدة . . . كل يوم هي في حال .

أوروبا تريد أن تتعاون معنا - « شميت » في بون يريد ، و « ديستان » في باريس لا يمانع - لكن الولايات المتحدة تشل ارادتهم .

الصين ليست خطرا حقيقيا ، وان كانت لها قدرة هائلة على الازعاج .

الهند لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث لها .

العالم الثالث حالته ميئوس منها .

العرب ؟ هل ترى ما فعله بنا العرب بعد كل ما فعلناه من أجلهم ؟ كدنا نواجه الولايات المتحدة في حرب نووية بسببهم ثلاث مرات - سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ - ومع ذلك أنت تعرف ما جرى ؟

حركة الثورة الوطنية ؟

هل تتصور انني لم أعد أطيق أن أسمع كلمة الثورة ؟

كانت أفغانستان في عصر « ظاهر شاه » ملكية ، وكانت مساعداتنا لها في حدود ٥٠ مليون دولار ، وكانوا سعداء ، وكنا مستريحين .

قام « داود خان » بانقلاب على « ظاهر شاه » ، وأعلن الجمهورية ، وأصبحنا أمام نظام تقدمي لا بد لنا أن نساعده ، وزادت مساعداتنا لأفغانستان الى ١٥٠ مليون دولار سنويا .

ثم جاءت ثورة أفغانستان ، وأعلنت أفغانستان جمهورية شعبية ثورية ، وطالبنا « تراقي » - زعيم الثورة - بتكثيف مساعداتنا ووصلت هذه المساعدات الى حدود ٥٠٠ مليون دولار سنويا*.

هذا ما أخذناه من حركة التقدم .

ثورة كوبا حتى هذه اللحظة تكلف الاتحاد السوفيتي مليون دولار كل يوم . . . كل يوم .

عندما قامت الثورة في اثيوبيا ، وجاءنا « منجستو هيلا مريم » الى موسكو لأول مرة يطلب مساعدة الاتحاد السوفيتي ، قلنا له على المكشوف :

- اذا كنت تريد تأييدنا السياسي ، فهو لك .

واذا كنت تريد بعض الأسلحة ، فاننا نستطيع أن نمدكم بها .

لكن الذي نرجوك أن لا تطلبه منا هو أن نتولى اطعامكم . . . ذلك فوق طاقتنا في هذه الظروف » .

---

* نظام بابرال كارمل الذي جاء بعد سقوط نظام حافظ أمين الذي تخلص
- نظام «تراقي» أصبح يكيف السوق لحماية ما يزيد على ألف مليون دولار !

وتعهد لنا « منجستو هيلا مريم » بأنه لن يطلب منا مساعدات اقتصادية ، وأن أثيوبيا تستطيع من مواردها اطعام شعبها .

□ □ □

وتبدأ الثمانينات وهناك تغيير حتمي على مستوى القمة في الاتحاد السوفيتي .

لكن تغيير القيادة ليس وحده كفيلا بتغيير الأحوال .

تغيير الأحوال لا يمكن أن يتم الا بعملية مراجعة شاملة - وليس تراجعا كما قلت - للكثير من منطلقات السياسة السوفيتية في الداخل والخارج .

وهناك مشاكل على أي حال في التغيير المحتمل .

نعم ، سوف يذهب « بريجنيف »، وربما « كوسيجين* » لأن السن تقدمت بالاثنين ، ولأن المرض - مع السن - يقتص ضريبته .

ولكن السؤال الكبير هو : من القادم . . . من القادمون ؟

الشباب في المكتب السياسي - على القمة السوفيتية - اختفوا ، والباقون كلهم من عمر « بريجنيف » و « كوسيجين » وأحيانا أكبر سنا منهما .

وفي كل الأحوال فان عملية المراجعة الضرورية سوف تكون عسيرة ومضنية .

الى جانب ذلك فان هناك خطرا محتملا :

- ماذا لو جاءت قيادة بدأت عملية المراجعة ، ثم خطر للولايات المتحدة في ظروف الفوران الفوضوي التي تحكم قرارها السياسي الآن - أن الفرصة مناسبة لاختبار صلابة القيادة الجديدة عن طريق تحديها واحراجها ؟

ماذا تفعل هذه القيادة ؟

وماذا يكون رد الفعل داخل الحزب ، وداخل القوات المسلحة السوفيتية ؟

□ □ □

* مات كوسيجين فعلا سنة ١٩٨٠

هذه هي أحوال القوة العظمى الثانية في هذا العصر وهي تخطو الى الثمانينات .

وهذا هو المناخ المؤثر على التعامل معها ، سواء كان التعامل من موقف الود أو كان من موقف الشك .

وهكذا قمة النظام الدولي كله في الثمانينات .

الولايات المتحدة حالة فوضى بالفوزان ، والاتحاد السوفيتي حالة قلق تغطية ثلوج بيضاء !!

آفاق الثمانينات (٨)

هل تستطيع أوروبا الغربية أن تجد لنفسها دوراً مستقلاً ومتوازناً ؟

بين أرجح الاحتمالات التي قد تجيء بها الثمانينات ، أن أوروبا الغربية قد تعثر لنفسها على دور مستقل ومتوازن ، أو قريب جدا من الاستقلال والتوازن .

والحقيقة أنه توجد في بون بالدرجة الأولى ، وفي باريس بالدرجة الثانية ، وفي لندن بالدرجة الثالثة - شواهد واضحة على أن هذا الدور المستقل والمتوازن - أو القريب من ذلك - يتشكل سنة بعد أخرى ويلائم أوضاعه من تجربة الى تجربة .

وليس معنى ذلك - على الاطلاق - أن ما حدث في الكتلة الشرقية بين الاتحاد السوفيتي والصين قابل للتكرار في الكتلة الغربية بين الولايات المتحدة وأوروبا ، وانما معناه أن القارة الأم العريقة لم تعد قادرة ولا راغبة في أن تتبنى السياسات الأمريكية ، ولا في أن تنتظم منضبطة في الصف وراء القيادة في واشنطن .

وهكذا فان بين الحلفاء التقليديين خلافا سوف يزداد اتساعا على مر السنين ، وعلى التجارب من واحدة لأخرى .

خلاف كبير ، لكنه لا يصل الى مرحلة التناقض الأساسي ، كما هو الحال بين الاتحاد السوفيتي والصين .

الخلاف الأمريكي الأوروبي الذي يزداد اتساعا سوف يظل في اطار أنه خلاف ، لأن هناك مصالح مشتركة عميقة بين الطرفين - مع قيام تضارب بين السياسات والارادات المطلوبة لتأمين هذه المصالح . وأما التناقض السوفيتي الصيني ، فقد اقترب من حافة الحرب المسلحة لأنه - عند الأساس - صدام بين وطنيتين متجاورتين ، وصراع على أراض بمساحة مئات آلاف الكيلومترات المربعة يدعي كل طرف منهما بحق السيادة عليها ، هذا الى جانب رواسب وعقد مستحكمة بدأت من العصر القيصري في روسيا والامبراطوري في الصين ، ثم امتدت الى العصر الشيوعي الذي بسط لونه الأحمر على الاثنين معا !

اتحفظ أكثر من ذلك في شأن الخلاف بين الحلفاء التقليديين ، فلا أذهب فيه الى تفاؤل المارشال « تيتو » رئيس يوجوسلافيا العجوز الحكيم الذي سمعته بنفسي يقول :

- لو استطاعت الدول غير المنحازة أن تحتفظ بخطها سليما وواضحا ، فلست أستبعد يوما نجد فيه بعضا من دول أوروبا الغربية مرشحة لتكون ضمن مجموعة الدول غير المنحازة ، أو أقرب ما تكون اليها .

ما أقول به - وأنا مقتنع - هو أن هناك خلافا يتسع بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، وأن هذا الخلاف سوف يصل بأوروبا الى استقلال وتوازن في سياستها وارادتها، وربما كان ذلك شيئا نستطيع اعتباره ظاهرة ايجابية بين احتمالات الثمانينات .

هذا ما أقول به ، ليس أكثر ، ومع ذلك فهو في حد ذاته كثير !

□ □ □

انني التقيت أخيرا مع عدد كبير من السياسيين الأوروبيين ، ومع مفكرين وصحفيين ، واستطيع دون تجاوز أن ألخص ما وجدت في معادلة بسيطة تقول :

« اليمين في أوروبا لم يعد يثق في قدرة الولايات المتحدة ، واليسار في أوروبا لم تكن لديه أبدا ثقة في حكمتها » .

والقصة طويلة وراء هذه المعادلة البسيطة ، وان كنا نستطيع تتبع مراحلها واحدة بعد الأخرى في استعراض سريع :

□ بدأت المرحلة الأولى من العلاقات الوثيقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة . كانت الولايات المتحدة هي القوة الأعظم في الغرب ، وكانت مواردها الطائلة وجيوشها الجرارة هي التي حررت أوروبا من قبضة « هتلر » ، وكانت أوروبا عارفة وممتنة . بل ان كثيرين من قادتها كانوا على استعداد للاعتراف بأن شرعية الحكومات التي قامت فيها بعد التحرير كانت شرعية نصف امريكية لأن الخلاص من النازية كان هو

الأساس الوحيد لشرعية النظم التي قامت بعد الحرب ، وكان هذا الخلاص أمريكيا في موارده وفي ادارته وبالتالي في نتائجه !

الى جانب ذلك كان هناك مشروع « مارشال » الذي استطاعت به الدول الرئيسية في غرب أوروبا - ألمانيا وفرنسا وبريطانيا - أن تعيد بواسطته بناء ما دمرته الحرب من طاقاتها وامكانياتها .

ومن لفح الحرب الساخنة الى زمهرير الحرب الباردة ، سارت أوروبا الغربية وراء الولايات المتحدة تتبعها راضية ، بل وتسبقها في بعض الأحيان متحمسة .

كان المتشكك الوحيد في تلك الفترة هو « شارل ديجول » زعيم فرنسا الذي أحس - وعبر عن احساسه - بأن الولايات المتحدة تسعى الى الارث الامبراطوري الأوروبي ، وبالذات فيما يتعلق بفرنسا وبريطانيا .

لكن « ديجول » في ذلك الوقت كان صوتا في التيه ، ثم انه كان من السهل تصوير شكوكه على أنها بقايا مرارة قديمة من أثر تعامله مع الرئيس الأمريكي « فرانكلين روزفلت » أيام الحرب العالمية الثانية ، وحين كان « ديجول » يقود حركة فرنسا الحرة ويصر على حقه في التعامل مع « روزفلت » و « تشرشل » على قدم المساواة ، بينما هو لا يملك في المجهود الحربي شيئا غير علم فرنسا الحرة وعليه صليب اللورين ، وموجة اذاعية واحدة خصصتها له هيئة الاذاعة البريطانية يوجه منها نداءاته الحماسية الى الشعب الفرنسي تحت الاحتلال ، ثم فرقة واحدة غير كاملة من المتطوعين الفرنسيين مبعثرة على مسارح الحرب الواسعة !

ونستطيع أن نقول أن مرحلة الولاء الأوروبي الأعمى للقيادة الأمريكية استمرت عشر سنوات ، ما بين ١٩٤٥ الى ١٩٥٥

ثم بدأت مرحلة ثانية .

□

كانت المرحلة الثانية هي مرحلة « القلق » .

أوروبا الغربية ما زالت في فلك الولايات المتحدة ، لكنها ترى من التصرفات الأمريكية ما يدعوها الى الدهشة والاستغراب ، والعجز عن الفهم أحيانا :

● ان الولايات المتحدة تعتبر نفسها احدى دول المحيط الهادىء الذي يطل عليه الغرب الأمريكي كله ، ومع ذلك فانها ترفض الاعتراف بالصين الشعبية التي يعيش فيها ثمانمائة مليون صيني تحت قيادة « ماوتسي تونج » وتصر على أن الصين الحقيقية هي جزيرة « فورموزا » التي يعيش عليها عشرون مليون نسمة تحت قيادة « شيانج كاي شيك » .

● ان الولايات المتحدة هي التي اخترعت سياسة الأحلاف العسكرية لتطويق الاتحاد السوفيتي ، ومع ذلك فانه حين أنشىء حلف بغداد في الشرق الأوسط استجابة لطلبها ، تركت بريطانيا تتصدر وتوارت هي خلف بريطانيا !

● ان الولايات المتحدة هي التي قامت بسحب المساهمة الغربية في تمويل السد العالي ، وبرغم ذلك فانها تركت بريطانيا وفرنسا تخوضان حرب السويس وحدهما بينما هي - الولايات المتحدة - تدين الحرب مبدئيا في الأمم المتحدة ، ومع ذلك فانه بعد أن توقف العدوان البريطاني الفرنسي على السويس واضطر الى الانسحاب ، وذهب « كريستيان بينو » وزير خارجية فرنسا يزور زميله الأمريكي « جون فوستر دالاس » في مستشفى كان يرقد فيه مريضا ، كان أول ما قاله له « دالاس » :

- لماذا توقفتم عن الحرب ، ولماذا رضيتم بالانسحاب ؟! »

● ان الولايات المتحدة التي اتخذ رئيسها - « ايزنهاور » سنة ١٩٥٨ - قرارا بانزال قوات الأسطول الأمريكي في لبنان لمواجهة الموقف المتدهور في الشرق الأوسط بعد الثورة العراقية في ١٤ يوليو من تلك السنة ، لم تفعل الا أن سحبت هذه القوات بعد شهور . كان تقديرهم أنه عندما تنزل قوات مسلحة

لاحتلال رأس جسر فتلك مقدمة لها ما بعدها ، ولكن أن تكون المقدمة هي نفسها الخاتمة فقد بدا لهم ذلك مدعاة للتساؤل .

● ان الولايات المتحدة التي كان هدفها الأساسي حماية مجتمع الأطلنطي ونصفه في أوروبا الغربية - هي نفسها التي تصدت لمحاولة « ديجول » لانشاء رادع نووي فرنسي مستقل يكون نواة لقوة ردع أوروبية . كان اصرار الولايات المتحدة على أن أوروبا الغربية لا يمكن أن يحميها غير الرادع النووي الأمريكي ، في حين أنه كان في امكان أي عاقل أن يدرك منذ اللحظة الأولى أنه ليست هناك انابة في الردع النووي . كل واحد يدافع عن نفسه فقط لأنه ليس هناك شعب يتحمل الخطر النووي دفاعا عن غيره من الشعوب .

● كانت الولايات المتحدة هي التي قادت العالم الغربي كله الى احتمال مواجهة نووية مع الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٦٢ بسبب أزمة الصواريخ الكوبية ، ومع ذلك فقد كانت هي نفسها التي وقعت مع الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٦٣ اتفاقية الحظر الجزئي للتجارب النووية ، ثم طلبت الى حلفائها أن يبصموا وراءها!

● كانت الولايات المتحدة هي التي بدأت بعد ذلك تتحسس الطريق الى الوفاق مع الاتحاد السوفيتي ، ومع ذلك فقد كانت ثورتها عارمة حينما بدأ « ديجول » وبعده « ويلي برانت » - مستشار ألمانيا الغربية وقتها - في اكتشاف طريق الشرق وفي جس نبض موسكو مباشرة .

كان أوضح ما سمعته بنفسي من « ويلي برانت » في تعبيره عن القلق - المهذب - في تلك المرحلة هو قوله لي :

- اذا كانت أمريكا تسعى الى الوفاق مع الاتحاد السوفيتي وهي على بعد أربعة آلاف ميل منه ، فكيف بنا نحن والخط الفاصل بين الشرق والغرب هو نفسه الخط الذي يقطع ألمانيا الى نصفين !!

ان ألمانيا هي وسط القارة ، وهذا هو دورها التقليدي ، ولهذا فقد كان لا بد لنا من التوجه نحو الشرق أيضا ، لم يكن الاتجاه نحو الشرق رأيي ورأي زملاء لي فحسب ، وانما كان املاء « ضرورات تاريخية » !

نستطيع أن نقول أن مرحلة القلق استغرقت هي الأخرى عشر سنوات - من ١٩٥٥ الى ١٩٦٥ .

كانت التصرفات الأمريكية في هذه الفترة مدعاة لدهشة واستغراب في أوروبا الغربية ، ومن نتيجتها نوبات من سوء الفهم ، لكن تعاقب نوبات سوء الفهم أدى بالتراكم الى شعور بالقلق .

□

وجاءت المرحلة الثالثة : وهي مرحلة الاختلاف ، وأترك الحديث فيها وعنها الى واحد من الذين عاشوا داخلها ومارسوا التجربة من موقع متميز في ادارة العلاقات الأمريكية / الأوروبية ، وهو « ميشيل جوبير » الذي كان أقرب المستشارين في السياسة الخارجية الى الجنرال « ديجول » ، ثم كان بعد ذلك وزيرا لخارجية فرنسا طوال رئاسة « جورج بومبيدو » .

قال لي « جوبير » :

- انني أعرف أن هنري كيسنجر قال لك انني رجل يهوى اثارة المشاكل ، وكذلك قرأت أنه قال لك أن مشكلتي هي قصر قامتي ، ولو كنت أطول بوصتين مما أنا الآن لانفكت عقدتي .

على أي حال لن أدخل في مبارزة كلام أو مباراة جمال مع هنري !

دعنا ندخل في صميم موضوع العلاقات الأوروبية الأمريكية » .

واستطرد « جوبير » :

- مشكلتهم في واشنطن أنه يبدو لنا أحيانا أنهم لا يريدون أصدقاء وانما يريدون اتباعاً ، وأوروبا - وفرنسا على وجه التحديد - لا ترضى ولا تستطيع أن تكون تابعا .

بالطبع نحن نقدر دور أمريكا في تحرير أوروبا وفي المحافظة على أمنها ، ولكن العرفان بالجميل لا يمكن أن يتحول الى تبعية .

ان أوروبا تغيرت بعد الحرب ، وكذلك تغيرت أمريكا . هناك حقائق دولية جديدة ، ومن مقتضى هذه الحقائق أن أمريكا أصبحت شريكا في مجتمع الغرب ، وهي بالتأكيد أكبر الشركاء ، ولكن الشريك الأكبر لا يملك حق الاملاء على بقية الشركاء . ما نريده ونسعى اليه هو تحالف أطلنطي حقيقي له قاعدتان : قاعدة في أمريكا الشمالية ، وقاعدة في اوروبا الغربية .

التحالف لا يكون الا من موقع المساواة . . . وأيضا من موقع الاتفاق الواضح على أهداف لا يحق لأحد أن يغيرها دون التشاور الكافي مع بقية أطراف التحالف .

لقد وجدنا أشياء غريبة تحدث في داخل التحالف .

أولا وجدنا أن الولايات المتحدة لا تريد أن تتعامل مع التسعة الأعضاء في السوق الأوروبية - حينها كانوا تسعة قبل انضمام بريطانيا - كنظام متحد في التوازن الدولي .

كانت هناك سياسة محاور يراد فرضها على أوروبا تحت اسم « العلاقات الخاصة » .

في وقت من الأوقات « علاقات خاصة » بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، وفي وقت آخر انتقلت الخصوصية الى « علاقات خاصة » بين واشنطن وبون ، وحينها لفتنا النظر الى هذه المناورات كان الرد علينا : بالعكس ، نحن نريد « علاقات خاصة » بين باريس وواشنطن ، ولهذا فنحن نرغب في تنسيق وثيق بين الولايات المتحدة وفرنسا .

في معظم الأحيان لم نكن نعرف مع من نتعامل في الولايات المتحدة . . . ليس العالم وحده هو الذي يتغير ، ولكن الولايات المتحدة كانت - ولا تزال - عرضة لتغييرات عميقة وواسعة .

هل تلاحظ مثلا أنه منذ أيام « كنيدي » لم يستطع رئيس أمريكي واحد أن يختم رئاسته في البيت الأبيض بنهاية طبيعية .

« كنيدي » قتل ، و « جونسون » أرغم على التخلي عن المدة الثانية الطبيعية من رئاسته ، و« نيكسون » عزل من الرئاسة قسرا ، و« فورد » كان رئيسا يسد فجوة ولم يستطع أن يسد الفجوة ، ثم جاء « كارتر » والكلام من حوله أنه رئيس لمدة واحدة * .

ما هو معنى ذلك ؟

معناه أن سلطة الرئاسة التي كانت القوة كلها قد تركزت فيها خلال الحرب وبعدها قد انكسرت .

سلطة الكونجرس هي الأخرى تعرضت للانكسار نتيجة لنمو سلطة الرئاسة في مرحلة سابقة وفي مرحلة لاحقة نتيجة لسلسلة من الفضائح المالية والأخلاقية .

حرب فيتنام أيضا كسرت شيئا في بنيان السلطة الأمريكية .

وفضيحة « ووترجيت » كسرت شيئا آخر في بنيان السلطة الأمريكية .

نتيجة انكسار السلطة : سياسات لم نعد نعرف - نحن على الأقل - مصدرها وأهدافها .

خذ أمثلة :

نسمع أحيانا عن أن الولايات المتحدة سوف تلعب « ورقة الصين » ، ورقة استعمال الصين ضد الاتحاد السوفيتي .

القوى الكبرى لا يمكن لها ، ولا تستطيع أن ترضى لنفسها أن تكون أوراقا في لعبة قوى كبرى أخرى

قلت لأصدقائنا الأمريكيين ذات مرة :

- تريدون أن تلعبوا ورقة الصين ؟ حسنا ، ماذا لو فكر السوفيت أن يلعبوا ورقة توحيد ألمانيا ؟

انهم سوف يشدون ألمانيا الغربية اليهم بأكثر مما تريدون ، وهذا سوف يؤثر على موازين القوى في قلب أوروبا ، فهل تريدون مثل هذا العبث بالموازين الآن ؟! »

---

* حدث

واستطرد « ميشيل جوبير » :

- خذ الأزمات المستحكمة في العالم الآن ، ودعنا نحاول أن نبحث عن الموقف الأمريكي فيها .

خذ أزمة الطاقة مثلا .

من جانبي أنا لا أعتقد أن بعض القوى في الولايات المتحدة كانت بعيدة عن عملية رفع أسعار البترول سنة ١٩٧٣ ، كانت الدول المنتجة للبترول تزيد في أسعاره قبل سنة ١٩٧٣ ، ولكن الزيادات كانت بمقدار .

أن يتضاعف سعر البترول أربع مرات في شهر واحد مسألة ملفتة للنظر .

من جانبي أنا لست مستعدا أن أصدق أن شاه ايران ومعه مجموعة من سلاطين الشرق قرروا ذات يوم ومن وحي مزاجهم الخاص أن يدفعوا بسعر البترول الى هذه الحدود .

هذا قرار ليس من السهل اتخاذه على مستوى محلي أو اقليمي .

فاذا سألت نفسي : من الذي كان وراءه ؟ لوجدت أن أسلوب البحث الجنائي هو أفضل سبيل للوصول الى الحقيقة .

في أي حادث يبدأ أسلوب البحث الجنائي في طرح سؤال : من المستفيد ؟

اذا طرحنا هذا السؤال في قضية رفع أسعار البترول ، وسألنا أنفسنا : من المستفيد ؟ لوجدنا أن المستفيد الحقيقي هو الولايات المتحدة .

ان العجز الذي كان في ميزان مدفوعاتهم تناقص وقتها بشدة ، ثم ان فوائض أموال بيع البترول معظمها ذهب اليهم .

بعيدا عن الأحاديث الرسمية لم يتورع بعض أصدقائنا الأمريكيين أن يقولوا لنا :

- ان رفع أسعار البترول هو بمثابة اعلان لكم بأن مشروع مارشال قد انتهى .

انا لسنوات طويلة سمحنا لكم بأن تحصلوا على بترول رخيص ، ولكنكم استعملتم هذا البترول في بناء امكانية صناعية كبرى أصبحت الآن - في أوروبا واليابان - منافسا قويا لنا .

اذا كنتم تريدون المنافسة فلتكن على أساس سعر طاقة حقيقي وليس سعر طاقة يحصل على معونة خفية من ضغوطنا على أصحاب البترول كي لا يرفعوا سعره .

خذ أزمة التضخم .

كانت البداية من الولايات المتحدة لأن الرؤساء الذين تورطوا في حرب فيتنام لم يكونوا قادرين على الذهاب الى الكونجرس بطلب اعتمادات اضافية للحرب . . . هكذا جرى تمويل حرب فيتنام بالعجز . . . دولارات ، دولارات بغير حساب تنهمر على العالم وقيمتها تتناقص .

قرروا تخفيض الدولار في أيام نيكسون ، ولم يخطروا أحدا بالتخفيض الا في لحظة اعلان القرار .

ونفخ « ميشيل جوبير » الهواء بفمه في حركة فرنسية تقليدية ، ثم استطرد :

- لا يخطرون أحدا بقراراتهم الا في آخر لحظة . على سبيل المثال في الشرق الأوسط . لقد فوجئنا في الأسبوع الأخير من أكتوبر ، أيام حرب أكتوبر بينكم وبين اسرائيل ، بأن الولايات المتحدة رفعت درجة استعدادها النووي الى الدرجة الثالثة حالة الاستعداد النووي عندهم خمس درجات ، واذا وصلنا الى الدرجة الثالثة فنحن في نصف الطريق الى احتمال حرب نووية .

لم يقولوا لنا . . . لم يقولوا لأحد حتى لغيرنا من الدول الأوروبية التي فوجئت بحالة التأهب في قواعد أمريكية جاثمة على أراضيها .

اتصالا بالشرق الأوسط ، خذ الطريقة التي تصرفوا بها في الأزمة بعد حرب أكتوبر ، كأنما الشرق الأوسط ساحة أمريكية مغلقة ، هكذا أبعد الاتحاد السوفيتي . لم يبعد الاتحاد السوفيتي وحده وانما جرى ابعاد أوروبا أيضا ، مع

أننا كنا نستطيع - بروابط قوية تقليدية مع المنطقة - أن نساهم ايجابيا في حل يمكن أن تكون له فرصة للنجاح .

هل هذا الذي توصلوا اليه في النهاية حل ؟

حسنا ، سوف نرى الى أين يصل بهم وبالمشكلة ؟ من سوء الحظ أن كثيرين سوف يدفعون الثمن ، ومع ذلك ماذا نصنع ؟

ماذا أقول لك أكثر ؟

هل أعطيك نموذجا آخر ؟ . . خذ موقفهم من طائرة الكونكورد التي تعاونت فرنسا وبريطانيا على انتاجها للطيران المدني بضعف سرعة الصوت .

لا يجادل أحد في أن الكونكورد انجاز تكنولوجي له آثاره الهائلة على عبور المسافات .

لكن هناك في الولايات المتحدة من يريد أن يقتل الكونكورد لسبب واحد هو أنها أوروبية . لو كانت أمريكية لما ترددنا في استعمالها ، ولأنها أوروبية فانهم لا يريدون ، وهكذا تموت الكونكورد الآن !

ما هو الحل ؟

لا يمكن أن يكون الحل انقساما بالعداء بين أوروبا وأمريكا ، هذا شيء غير محتمل وغير متصور لأن جذورنا الثقافية والحضارية مشتركة ثم ان مصالحنا متشابكة .

الحل لا يمكن أن يكون بالتغطية على الخلافات .

الحل الأمثل هو علاقات جديدة . . . لا بد لأوروبا أن تؤكد استقلالها مع التأكيد على صداقتها للولايات المتحدة !

ان أحدا لا يحاول حتى الآن وضع أساس جديد للعلاقات الأوروبية الأمريكية . والحقيقة أن السبب لا يعود كله الى ما يجري في الولايات المتحدة ، وانما جزء منه يعود الى ما يجري في أوروبا نفسها .

حزام الزيتون - على حد تعبير المستشار الألماني « هيلموت شميدت » ويقصد به أوروبا الجنوبية من اليونان شرقا الى البرتغال غربا - يعيش حالة مخاض سياسي واجتماعي حادة .

فرنسا تهزها سلسلة من الفضائح تهدد الجمهورية الفرنسية الخامسة ، فضائح الماس الذي قدمه الامبراطور «بوكاسا» للرئيس « فاليري جيسكار ديستان » ، ثم الفضائح التي أدت الى انتحار « روبير بولان » وزير العمل الفرنسي .

بريطانيا تعيش حالة ثورة اجتماعية باردة لأن أساسا جديدا لعلاقات الانتاج يجري الأن تشكيله بالصراع بين رأس المال ونقابات العمال .

ألمانيا الغربية أحسن حالا من الآخرين ، وان كانت لها أيضا مشاكلها .

لكن أوروبا الغربية في فترة وجيزة من الزمن قد تستطيع مواجهة نفسها والعالم بأوضاع أكثر صلابة وأقدر على الحركة المنسقة .

ظروف وأسباب كثيرة تدعوها الى ذلك وتدفعها نحوه وقد تفرضه عليها . وربما كانت هناك أيضا عوامل مساعدة :

● بينها أن مجموعة دول أوروبا الغربية - بتعبير أدق مجموعة السوق الأوروبية المشتركة - عليها أن تجد لنفسها حلولا مستقلة ومتوازنة للأزمات الحقيقية - والهائلة - التي تنتظر عالم الثمانينات ، وهي مشاكل الطاقة والبطالة والتضخم .

صحيح أنها في هذه المشاكل جميعا لا بد لها أن تنسق قدر ما تستطيع مع الولايات المتحدة ، ولكن الحل الأمريكي لأي مشكلة من هذه المشاكل قد لا يكون بالضرورة حلا أوروبيا ، بل ان هناك احتمالات تناقض واضح كما هو الحال في أزمتي الطاقة والتضخم .

الى جانب ذلك هناك مشكلة الأمن ، صحيح أن أوروبا الغربية لم تستطع أن تقبل عروض « بريجنيف » في شأن تخفيض القوات المتبادل في أوروبا ، ولكن الصحيح أيضا أنها مترددة في شأن مقترحات « كارتر » لاستبدال

الصواريخ النووية القصيرة المدى التي تضعها الولايات المتحدة على القارة بصواريخ أخرى أحدث وأبعد مدى .

وفي كل الأحوال ، فان أوروبا الغربية لا بد لها من سياسة شرقية أشد حذرا ودقة .

● بينما أنه ليس في أوروبا الغربية كلها الآن عملاق - كـ « ديجول » مثلا - يثير وجوده في القارة حساسيات زعامة لا مبرر لها . بدلا من ذلك هناك الآن قيادات كل منها بمقاس دولة واحدة ، وليس بينها من يستطيع نفوذه أن يتخطى حدود دولته . . . « شميدت » بمقاس ألمانيا الغربية ، و« ديستان » بمقاس فرنسا ، و« مارجريت تاتشر » أو « جيمس كلاهان » بمقاس بريطانيا .

وهم جميعا من خلفيات شبه متقاربة ، وهم وغيرهم يستطيعون أن يكونوا بمثابة مجلس ادارة لمشروع أوروبا . . سياسة وارادة مستقلة ومتوازنة ، أو شبه مستقلة وشبه متوازنة .

● بينما كذلك أن السياسة في أوروبا الغربية ما زالت بعيدة كل البعد عن أن تكون « سياسة الكترونات » ، سياسة بالصور وبقوة الانطباع بصرف النظر عن قوة الاقناع . ان الوسائل الالكترونية الجديدة تلعب - بالقطع - دورا متزايدا ، ولكن الوسائل الالكترونية لم يفلت عيارها بعد كما حدث في الولايات المتحدة ، والسبب الواضح أن هذه الوسائل ليست بعيدة عن قوى العمل السياسي المنظم - كالحكومات والبرلمانات والأحزاب .

● بينما أيضا أن أوروبا الغربية وراءها تراث حضاري ، ووراءها تجربة تاريخية قيمة . وربما قلنا أنها استفادت في ثروتها من عهد بناء الامبراطوريات ، ولكنها على وجه اليقين استفادت أكثر في عقلها من عهد سقوط الامبراطوريات .

وهناك أسباب أخرى .

وبين الاسئلة الكبيرة المعلقة على باب الثمانينات سؤال :

- هل تستطيع أوروبا الغربية أن تتحمل تكاليف وتبعات استقلالها ؟!

آفاق الثمانينات (٩)

العمالقة الثلاثة في العالم الثالث بين الحيرة والضياع والتمزق

كلما حاولت أن أفكر في أحوال العالم الثالث ، وبالذات آسيا وافريقيا ، في الثمانينات - وجدت نفسي رغما عني أعود بالذاكرة الى معالم - هل أقول أطلال ؟ - الخمسينات !

لماذا ؟

لأني أشعر شعورا لا أستطيع مغالبته بأن الثمانينات المقبلة تكاد أن تكون نقيضا حادا للخمسينات ، بحيث أن أصدق وصف للثمانينات فيما يبدو من طلائعها أن ننسبها الى العكس تماما من الخمسينات !

كيف ؟

اذا تذكرنا العالم الثالث وأحواله في الخمسينات فسوف نجد أن مجموعة الظواهر التي أثرت عليه وحددت اتجاهات الحوادث فيه وقتها - كما يلي :

١ - حركة الثورة الوطنية التي انطلقت بعد الحرب العالمية الثانية كأنها اعصار هائل يندفع من أقصى الشرق عند شواطىء بحر الصين الى أقصى الغرب عند السواحل الافريقية المطلة على المحيط الأطلسي :

ثورة توحيد وتحرير الصين - ثورة تحرير اندونيسيا - ثورة استقلال الهند - ثورة فيتنام في مرحلتها الأولى .

الاعصار يغطي رقعة آسيا كلها .

ثم تجيء الثورة المصرية التي تحولت الى حركة عامة لم تتوقف عند حدود

العالم العربي ، وانما تفرعت آثارها ، فاذا هي - بعد أن غطت رقعة الشرق الأوسط كلها - تندفع الى قلب القارة الأفريقية .

واهتزت امبراطوريات جديدة ، وترنحت امبراطوريات قديمة .

اهتز الحلم الامبراطوري الأمريكي الأسيوي بثورة الصين ، وترنحت الامبراطورية الهولندية في اندونيسيا وسقطت .

وتصورت الامبراطورية البريطانية أنها تستطيع الانسحاب من الشرق الأقصى لتستحكم في الشرق الأوسط - وكذلك توهمت الامبراطورية الفرنسية ، ولكن الثورة القومية العربية تولت الاجهاز على ما بقي من الامبراطوريتين القديمتين .

وبدا لوهلة وكأن الاعصار الهائل - حركة الثورة الوطنية - قد اقتحم أبواب مرحلة جديدة من التاريخ .

٢ - كانت الظاهرة الثانية - بعد حركة الثورة الوطنية - هي ظاهرة الجاذبية المتزايدة للعقائد الاجتماعية ذات المحتوى التقدمي . فقد بدا أن حركة التحرير الوطني لا تستكمل أصالتها بغير بعد اجتماعي . ان تحقيق الاستقلال يحرر الأرض ، ولكن تحرير الأرض يفقد مضمونه بغير حرية الانسان على هذه الأرض . وهكذا فان الاستقلال الوطني لا يكتمل بغير انهاء الاستغلال الاجتماعي .

وكان استقراء التطور التاريخي ومراحله يطرح على حركة الثورة الوطنية مناهج واجتهادات في العمل الداخلي بدت متماسكة متكاملة ، بل بدت وكأن لها قدرة وقوة قانون طبيعي للنمو الشامل .

أخذت الصين بالماركسية ، وأخذت الهند بفكرة التخطيط ، وأخذت مصر بنوع من الاشتراكية التي يمتزج فيها التجديد والتقليد .

وبدا للكل أن الطريق الى المستقبل مفتوح .

٣ - كانت الظاهرة الثالثة - بعد حركة الثورة الوطنية ، وبعد جاذبية العقائد الاجتماعية - ظهور جيل من القيادات التاريخية .

كانت أوضاع العالم الثالث كله ، بعد قرون طويلة من الاستعمار والاستغلال ، في حالة يرثى لها . كانت وحدة الأمم في حد ذاتها موضع شك بسبب الرواسب القبلية والطائفية والعنصرية والقومية الى آخره . وكانت هناك حاجة الى رجال فوق العادة يستطيعون تجاوز الواقع بكل أثقاله ، وتوحيد آمال الأمم على أهداف تطوق كل أسباب الفرقة والانقسام ، ثم قيادة هذه الآمال والاقتراب بها من تخوم الواقع .

وظهر « ماوتسي تونج » ، و « سوكارنو » ، و« نهرو » ، و « جمال عبد الناصر » - بل وظهر في قلب القارة الافريقية رجال تأثروا بهم واقتفوا دروبهم .

وبدا أن هناك ما يدعو الى التفاؤل بالمستقبل : الحركة ، والعقيدة ، والرجل التاريخي .

٤ - كانت الظاهرة الرابعة - بعد حركة الثورة الوطنية ، وبعد جاذبية العقائد الاجتماعية ،وبعد جيل الرجال التاريخيين - أن تعاونا وثيقا وواسعا نشأ بين هؤلاء الرجال بكل ما يمثلونه ويرمزون اليه .

كان كل منهم يثق في نفسه ، وكان كل منهم على استعداد لأن يثق في الآخرين ، لأن المبادىء - على عكس المطامع - تقرب بين الرجال ولا تفرق بينهم .

وهكذا تعاون « ماو » و « سوكارنو » و « نهرو » و« عبد الناصر » - وكان المؤتمر الأسيوي الافريقي الأكبر في « باندونج » علامة مضيئة في تاريخ الخمسينات . ثم نشأت حركة الدول غير المنحازة يقودها « تيتو » و« عبد الناصر » و« نهرو » .

واستطاعت هذه الحركة أن تمد جهودها الى قضايا صيانة السلام العالمي

والتنبيه الى خطر السباق النووي ومشكلات التخلف الاقتصادي والحضاري الى آخره .

بدا أن الآمال باتساع الأفق ، وأن استمرار النضال من أجلها كفيل بتحقيق الوصول على الأقل الى قربها .

هكذا كان العالم الثالث في الخمسينات . . . حالة من الفوران واليقظة ، والآمال والانجازات ، والتيارات الكبرى والرجال القمم .

□ □ □

في نهاية السبعينات كانت الصورة أشد ما تكون اختلافا :

● الامبراطوريات المترنحة أو المتهاوية استعادت توازنها ، وبدلا من أن يكون الاحتلال المسلح وسيلة سيطرتها كما كان في الماضي – تحولت الى السيطرة الاقتصادية مسنودة بوسائل السيطرة الخفية . وتوقف التيار المندفع من بحر الصين الى شواطىء الأطلنطي ، وتبعثرت قواه وتشتت .

● جاذبية العقائد غطت عليها فاعلية التكنولوجيا ، فاذا المتقدمون أكثر تقدما ، واذا المتخلفون أكثر تخلفا مهما تبحروا في دراسات التطور التاريخي ومراحله . ثم ان أحلام النمو طغت عليها شهوات أنماط من الاستهلاك ساعد عليها تراجع مجموعات القيم التي ألهمت وعبأت في مرحلة سابقة .

● جيل الرجال التاريخيين اختفى . بعضهم قضت عليه المؤامرة . وبعضهم قضى عليه الارهاق . وبعضهم حاصرته الظروف المتغيرة ثم تجاوزته هادرة في مجاريها .

● والتعاون بين رجال الظروف الطارئة شبه مستحيل ، فمعظمهم لا يثق في نفسه ، ولا يثق في غيره ، ثم ان المطامع ـ على عكس المبادىء ـ تفرق ولا توحد .

وعلى أبواب الثمانينات تبدو الصورة وقد تجاوزت في اختلافها عن الخمسينات حدود المعقول . باختصار كان العالم الثالث في الخمسينات مشغولا

بدفع قوى السيطرة والاستعمار المنتظرة عند البوابة . والآن على مدخل الثمانينات تبدو معظم دول العالم الثالث مشغولة بالوقوف على أبواب قوى السيطرة والاستعمار تنتظر !

ربما من هنا جاء جزء من القيمة التي اكتسبتها الثورة الايرانية : صوت بالرفض في جو كله خضوع ، وانتصار للايمان في عصر كله تكنولوجيا ، وقيادة تاريخية في حقبة غفل عنها التاريخ !

□

وفي لندن قضيت أمسية في ضيافة سفير بريطاني سابق في العالم العربي ؛ وفضلا عن خبرته الطويلة فان ذلك الدبلوماسي المحنك ما زال يهتم ويتابع .

كان موضوع حديثنا تلك الليلة في لندن عن العالم الثالث وما حدث فيه . وكان بين ما قاله لي :

- هل تستطيع أن تشرح لي ماذا جرى ؟

كيف حدث أن أفرز العالم الثالث رجالا من أمثال « عيدي أمين » و « بوكاسا » ؟

كيف حدث أن الستينات والسبعينات شهدت أكثر من ثلثمائة انقلاب وثورة مضادة أو نصف انقلاب أو نصف ثورة مضادة في العالم الثالث ؟ .

كيف تفسر أن وكالة المخابرات المركزية تنسق تنسيقا وثيقا مع سبع دول على الأقل في الشرق الأوسط ؟

كيف تفسر أن هيئة الأمن القومي الفرنسية - المخابرات - تشرف على الأمن والمعلومات في عشر دول افريقية على الأقل ؟

ما هو ردك لو قلت لك : أليس غريبا أن أغنى الرجال في العالم اليوم هم حكام أفقر شعوبه ؟

شاه ايران السابق ثروته في حدود العشرين بليون دولار !

الجنرال « موبوتو » رئيس الكونجو بليونير ، وان كنت لا أعرف عدد بلايينه على وجه التحديد !

وغيرهما وغيرهما . . ؟

وقلت لمضيفي في تلك الأمسية :

- لا أختلف معك في هذا كله وغيره ، ولكن دعني أسألك بأمانة من المسئول ؟

هل أنت في حاجة الى اجابة أو اجابات أقدمها لك ، أو أن كل الحقائق عندك ؟ ان العالم الثالث كان ضحية .

ماذا لو سألتك بدوري عن نشاط الشركات الدولية الكبرى - الشركات متعددة الجنسيات - في العالم الثالث ؟ ماذا لو سألتك عن وسائل أجهزة المخابرات ؟ ماذا لو سألتك عن الحرب النفسية ؟ماذا لو سألتك عن الحصار الاقتصادي ؟ ماذا لو سألتك عن نهب المواد الخام واحتكار التكنولوجيا ؟ ماذا لو سألتك عن مؤامرات الارهاب والقتل أو مؤامرات الفساد والافساد ؟

ماذا لو سألتك عن هذا كله في العالم الثالث ، ثم سألتك في النهاية : ما هو ردك ؟

دعني مقدما أعترف لك أن العالم الثالث جان على نفسه الى جانب كونه ضحية . جنايته على نفسه بعجزه عن فهم حقيقة نفسه ، وحقيقة غيره وحقائق العصر . ذلك أعترف به ، لكنك لا تستطيع أن تستمر في عريضة اتهامك للعالم الثالث بمنطق بيت شعر في العربيةمشهور : يرضى القتيل وليس يرضى القاتل ؟

قلت بعد لحظة صمت :

- ومع ذلك فان قصة العالم الثالث لم تنته بعد . ما وصفته أنت هو حاله فعلا على مدخل الثمانينات ، ولكن هناك احتمالات كثيرة معلقة في السماء لم تحسم بعد .

ان الصورة كلها ليست « عيدي أمين » و « بوكاسا » ، وليست

الانقلابات والثورات المضادة والتصفيات الدموية والثروات الخرافية - لكن هناك الى جانب ذلك حالات ومواقف أخطر من كل ما ذكرت حتى الآن وأكبر ، وبها - فيما أظن - يرتبط مستقبل العالم الثالث في الثمانينات . . .

لو سألتني عنها لقلت لك :

- ان العالم الثالث في الثمانينات سوف تؤثر فيه بأكثر مما ذكرنا حتى الآن ثلاثة احتمالات ما زالت معلقة في الهواء :

● ماذا سيحدث في الصين ؟

● ماذا سيجري للهند ؟

● كيف تتطور أوضاع الشرق الأوسط : أزمة الصراع العربي الاسرائيلي - ثم بركان الثورة الايرانية ؟

□ □ □

ثلاثة كيانات سياسية جغرافية انسانية عملاقة - لكن كل واحد منها في حال يتحتم عليه أن يخرج منه على نحو أو آخر . وسيلة الخروج . . . شكل الخروج . . . نتائج الخروج - سوف تقرر أوضاع العالم الثالث لما تبقى من هذا القرن العشرين ، وربما بعده .

كيانات عملاقة كل واحد منها في حال : الصين عملاق حائر ، والهند عملاق ضائع ، والشرق الأوسط عملاق ممزق .

□ نبدأ بالصين : كانت تحت قيادة « ماوتسي تونج » تجربة أسطورية ، مجتمع هائل يعاد بناؤه من جديد وانسان عريق يعاد تشكيله مرة أخرى .

في خمس وعشرين سنة تم بناء قاعدة صناعية في الصين ، وفي خمس وعشرين سنة بدا أن انسانا مختلفا عن بقية البشر تبرز ملامحه هناك .

أتذكر حديثا مع « ماوتسي تونج » في موسكو سنة ١٩٥٧ قال لي فيه :

- عندما تتحدثون عن الصين وتهتمون بما يجري فيها فلا بد أن تكون لكم نظرة كلية . . . تحدثوا واهتموا بالصين كلها ، ليس أمام الصين الا أن تتحرك حركة واحدة أو تنفك وحدتها . الفرد في الصين جزء من كل ضخم على مقياس لا تعرفه الدنيا خارجها . لو أننا في الصين قلنا لكل فرد : « أنت وشأنك » ، لعمت الصين فوضى تعود بها الى عهد سادة الحرب بكل مفاسده وعجزه ، والذي فتح الباب لمهانة التدخل الأجنبي على مشارفها .

لا شيء يعبر عن هذه الصين التي أحدثك عنها الا نظام العمل فيها . . . العمل فيالق وفرق وكتائب تبني السدود معا . تشق الطرق معا . تحرث الأرض وتقيم المصانع معا .

في حديث مع « شوين لاي » في بكين سنة ١٩٧٣ - كان تعبير هذا السياسي الصيني الحكيم عن نفس الفكرة بأسلوب مختلف :

- اننا لا نطلب هنا من الفرد أن يضحي . . . فكرة التضحية ليست مطروحة . وانما نحن نطلب منه أن يرى كل شيء - حتى احتياجاته الأساسية - في اطار احتياجات الصين .

مشكلتنا تختلف عن أي بلد غيرنا ، يكفينا الحجم وحده . سوف أعطيك مثالا .

لنفرض أن استهلاك الفرد في الصين من اللحم زاد بمعدل كيلو جرام واحد كل شهر . . . ذلك معناه ببساطة أن الصين تحتاج الى ١٢ مليون طن من اللحم كل سنة . . . ليس في العالم كله من اللحوم ما يكفي لهذا الاستهلاك .

هل تذكر ماذا قلت لعبد الناصر في باندونج ؟ كان يشعر أن الغرب يحاصره بالامتناع عن شراء القطن المصري ، وقلت له اننا نستطيع أن نساعد . لو أن سترة كل صيني زادت في طولها بمقدار ثلاثة سنتيمترات لاحتجنا الى القطن المصري كله .

بعد « ماوتسي تونج » وبعد « شوين لاي » هناك الآن قيادة جديدة في

الصين يمثلها « هوا كوفنج » و « دنج هسياوبنج » ، والقيادة الجديدة لم تخرج بعد على خط « ماو » ، ولكنها تجرب مسالك جديدة تتفق مع الرغبة في التحديث ودخول عصر التكنولوجيا المتقدمة وزيادة جرعة الديمقراطية . كل ذلك سوف يؤدي الى سلسلة من ردود الفعل الانسانية . سوف تبرز النزعات الفردية ، وسوف تلحق بها النزعات الاستهلاكية . . . كل خطوة تغري بخطوة بعدها ، وهذه هي أزمة الصين الحالية ، وهذا هو المأزق الذي تواجهه قيادتها .

يضاعف من الأزمة والمأزق أن أحدا لا يريد مساعدة الصين بطريقة فعالة ، وربما أنه لا يوجد من يستطيع أن يساعد الصين خارج الصين .

ان الاتحاد السوفيتي جرب مساعدة الصين حتى سنة ١٩٥٨ ، ثم اضطر الى الانسحاب .

وحين فكرت الولايات المتحدة أخيرا في أن تلعب ورقة الصين أمام الاتحاد السوفيتي - اكتفى « أندريه جروميكو » وزير الخارجية السوفيتي في حديث له مع « جيمي كارتر » أن يقول للرئيس الأمريكي :

- هل أنتم واثقون أنكم تريدون صينا قوية . . . ألف مليون في آسيا ؟

كان كلام « جروميكو » صدى بعد قرابة قرنين من الزمان لصوت « نابليون » الذي قال :

- دعوا التنين الأصفر نائما . . . لا توقظوه !

والآن كيف تخرج الصين من أزمتها الراهنة ومن المأزق ؟ أمامها أما أن تعود الى « خط ماو » وبأساليب « ماو » - واما أن تواجه مستقبلاً مجهولا ، لأنها ببساطة كيان تختلف عن غيره في العالم .

هذه باختصار حكاية العملاق الحائر !

□ ننتقل الى الهند : كانت تحت قيادة « غاندي » و « نهرو » بعده تجربة غربية ، وهي الأخرى فريدة في نوعها . حصلت على الاستقلال تحت قيادة تاريخية -

« غاندي » و « نهرو » - استطاعت أن تنفذ من زحام مئات الطوائف والأديان واللغات لتوقظ روح الهند .

ان هذه القيادة التاريخية استطاعت أيضا أن تستغل تقاليد « حكومة الهند » التي كان لها في اطار الامبراطورية البريطانية وضع مستقل وخاص مكنها من خلق صفوة ادارية على أعلى مستوى - لكي تبدأ بها عملية يقظة الهند الجديدة .

كان من الصعب على أي قيادة وعلى أي ادارة أن تحرك الهند كلها ، وهكذا تحرك على الفور جزء من الهند ، بينما راحت بقية الهند تنتظر في صبر وأمل .

من نتيجة ذلك أن أصبحت الهند : هندين تقريبا .

هند تتحرك ، وهند تنتظر .

الهند المتحركة هند محدودة . . . أربعون مليونا هم المجتمع الصناعي والتجاري والمالي المتقدم ، مجتمع الجامعات والثقافة والديمقراطية ، هذا هو المجتمع الذي استطاع أن يصنع ويفجر جهازا نوويا دخلت به هذه الهند المتحركة عصر الذرة .

بقية الهند ، بقية أربعمائة مليون من سكانها ، كانت واقفة تنتظر .

وكان التحدي الكبير المعلق على رأس الهند - وما زال معلقا حتى الآن - هو أي الهندين سوف تستطيع أن تشد الأخرى اليها ؟

هل تستطيع الهند المتحركة أن تشد اليها الهند الواقفة ؟

أو أن الهند الواقفة هي التي ستشد اليها الهند المتحركة ؟

كان « نهرو » يرى الصورة بوضوح في أواخر أيام حياته . واتذكر أنني ذهبت أزوره في مقر رئيس الوزراء في دلهي أثناء مرضه الأخير ، وقلت لابنته « أنديرا غاندي » انني لا أريد أن أثقل عليه ، ولذلك أكتفي بأن اترك تحيتي له

معها وأنصرف ، ولكنها قالت إنها وجدته هذا الصباح في مزاج معتدل ، ثم انها أحست أن لديه رغبة في الكلام . وصعدت الى غرفة نومه ، وكان على سريره يرتدي جلبابا أبيض ، وكانت الوردة الحمراء التقليدية التي تعودنا أن نراها معلقة على صدره موضوعة في اناء صغير على مائدة بجوار فراشه .

وتطرق الحديث كالعادة الى أحوال العالم ، ثم الى أحوال الهند . وكان تشاؤمه التاريخي التقليدي أكثر من كل مرة ، واسترسل في حديثه :

- ماذا فعلنا خلال كل سنوات الاستقلال . . . لا أعرف !

أحيانا أتصور أننا انجزنا . . . وفي أحيان أخرى أرى أننا لم نقترب بعد من مشاكلنا الحقيقية ، وانما نحن ما زلنا ندور حولها متهيبين أن نقترب منها !

أنت ترى أن هناك هندين الآن . . .

هند تعيش مع بقية العالم ، وهند أخرى - هي هند الأغلبية - تعيش مع نفسها ومع مشاكلها التي لم تتغير منذ آلاف السنين .

اننا لم نقصد أن نجعل من الهند هندين ، ولكن الواقع فرض نفسه .

كانت هناك حكومة الهند بوضعها المستقل في اطار الامبراطورية . ولأن هذه الحكومة كانت بعيدة فقد كان لها حق التصرف المستقل عن لندن . ولأنها كانت تواجه تحديات مباشرة في آسيا فانه كان عليها أن تبني من حولها قوة للتصرف الذاتي .

حول حكومة الهند قامت نواة . . . النواة اتسعت . . . الحرب العالمية الأولى ساعدت الهند على أن تبدأ التصنيع ، فقد كان لحكومة الهند وقيادتها مجهودها الحربي الذي لا يستطيع أن ينتظر قرار لندن أو يعتمد على امدادها .

الحرب العالمية الثانية وأهمية مسرح الشرق الأقصى في مواجهة اليابان عزز هذا الوضع كثيرا . وحين بدأ الاستقلال كانت هناك مقدمة نسبيا على استعداد لأن تسبق الى الحركة ، وكان يجب أن نطلق لها العنان .

كان الأمل أن تكون هذه الهند المتحركة هي القاطرة التي تشد بقية العربات .

قطاع متقدم يشد بقية المجتمع .

لكن الخطر كان ماثلا أمامنا . ماذا لو أصبحت الهند المتقدمة تكوينا طبقيا ممتازا يستغل بقية الهند ويتحكم في أقدارها ؟

ان يقظة روح الهند كانت هي الضمان ، لكن المصالح الطبقية قوية ، ونماذج الحياة في العالم المتقدم لها قدرة هائلة على الاغراء والغواية .

ان كل شيء في الهند ، بما في ذلك التجربة الديمقراطية ، مرهون بمقدرة الهند المتحركة على أن تظل دواما ملتزمة بروح الهند ، ولكن من يضمن ؟

أحيانا أشعر بيأس . . . أقول لنفسي لا فائدة لأن الأنانية الفردية والطبقية ستكون لها الكلمة الأخيرة . . . هكذا يتصورون ، ولكن الكلمة الأخيرة لن تكون لهم ، ولن تكون لأحد .

هل تتصور أن البشرية كلها تستطيع أن تحتمل سقوط الهند ؟!

بعد « نهرو » وبعد فترة من التردد ، جاءت ابنته « أنديرا غاندي » الى الحكم .

أتصور أن أكثر ما ينسب اليها من أخطاء - بما في ذلك حالة الطوارىء وما جرى فيها - كان يرجع الى رغبتها في الاحتفاظ بحيوية روح الهند ، واحساسها بضرورة تعميق التزام الهند المتحركة - هند الأقلية - بالهند الواقفة ، خصوصا وأن هذه الهند - هند الأغلبية - كانت قد بدأت تتململ . . . وتسخط !

ان الهند المتحركة - هند الأقلية - أسقطت « أنديرا غاندي » ، ولكن الهند الواقفة - هند الأغلبية التي بدأت تتململ وتسخط ! هي التي قد تعيدها مرة أخرى الى السلطة*.

* حدث

ولكن المشكلة الكبرى هي ... ماذا تصنع ؟

اذا لم تصل « أنديرا غاندي » الى السلطة ، أو اذا وصلت ثم فشلت في تحقيق ما ترغب فيه وتشعر بضرورته ، فكيف يمكن الاحتفاظ ليس فقط بروح الهند وانما بمجرد وحدتها وسط مئات الطوائف والأديان واللغات ؟

الاحتمال الوحيد أن يتدخل الجيش لأول مرة .

وهنا أيضا سؤال كبير : الى أين يؤدي تدخل الجيش في الهند ؟

وهذه حكاية العملاق الضائع !

□ ونصل - في حديث الحالات والمواقف الأخطر والأكبر المعلقة فوق رأس العالم الثالث ومستقبله في الثمانينات - الى حكاية العملاق الثالث . العملاق الممزق . الشرق الأوسط .

هل نحن في حاجة الى مزيد من التفاصيل في هذه الحكاية ؟

أو أن التفاصيل هي ما نحن فيه الآن ، وما نعيشه كل يوم ، وما نراه من حولنا بينما تعثر خطانا على عتبة الثمانينات !!

آفاق الثمانينات (١٠)

ماذا جرى ؟ ماذا سيجري ؟ - في العالم العربي

منذ السطر الأول في هذا الحديث ـ وهو حلقة في سلسلة عن آفاق الثمانينات ـ أعترف بعجزي عن الوصول في موضوعه الى قرار أو الى رأي . . . وربما حتى الى ظن أرجح صحته فوق غيره من الظنون !

أعترف بالعجز ولا أتحرج . لأن أية محاولة لتصور أوضاع الشرق الأوسط وأحواله في الثمانينات لم يعد يقدر على المجازفة بها غير ضارب رمل أو قارىء فنجان ، وكلاهما فن لاخبرة لي فيه !

أي جهد في التحقيق والتحليل ضائع ، لأن أحداً لا يستطيع الاقتراب من محاولة من هذا النوع دون تقييم لحقائق ما هو واقع واستقصاء لأسبابه ثم رصد اتجاهات المستقبل على ضوء قواعد ثبتت صحتها وقوانين حركة وموازين محسوبة وتصرفات عقلانية لها هدف محدد وسياق منطقي قابل للمتابعة حتى نقطة وصوله الى نتائجه المرجوة أو المحتملة .

وذلك كله لا وجود له الآن في مشاكل الشرق الأوسط ولا في أوضاعه الراهنة .

هكذا فان كل منطقة في العالم يمكن تصور مستقبلها في شكله العام على الأقل ـ في ضوء مثل هذه القواعد والقوانين والموازين والتصرفات والسياق القابل للمتابعة ـ الا الشرق الأوسط الذي لحقته في أواخر السبعينات أحداث وأحوال تنتمي الى عوالم مجهولة وراء العقل ووراء الزمن ، وأكاد أقول وراء الطبيعة !

كان ممكنا ـ على سبيل المثال ـ في أحاديث سابقة ان نتصور أحوال

الولايات المتحدة في الثمانينات ، وأحوال الاتحاد السوفيتي ، وأحوال أوروبا الغربية ـ على ضوء قواعد وقوانين وموازين وتصرفات وسياق قابل للمتابعة سواء اتفقنا مع منطلقاته أو اختلفنا مع هذه المنطلقات .

لكن الشرق الأوسط حالة أخرى !

□ □ □

قبل سنوات معدودات كان في وسع أي باحث دارس لشئون الشرق الأوسط أن يقول إن القواعد والقوانين والموازين والتصرفات والسياق القابلة للمتابعة في مصائر الشرق الأوسط تستند على تفاعلات مجموعة من الصراعات الأساسية التي تحكم المنطقة :

١ ـ كان الصراع الأول في المنطقة ـ وعلى مستوى الوجود نفسه ـ هو الصراع بين شعوبها وبين القوى التي سيطرت على أقدار هذه الشعوب من غزوات القرن التاسع عشر ، ومن بقايا السباق على تركة الامبراطورية العثمانية .

كان هذا الصراع من أجل الوجود المستقل قد قطع شوطا بعيدا ، وتحقق قسط لا بأس به من الاستقلال لمعظم دول المنطقة ، وكان النضال ما زال مستمرا لتوسيع نطاق الاستقلال وتعميق مضمونه .

وفي الحقيقة فانه كان يمكن فهم كل ما جرى في المنطقة في مرحلة ما بين الحربين العالميتين باعتباره كفاحا من أجل الاستقلال الوطني . ثم ان ما جرى في المنطقة من تاريخ انتهاء الحرب العالمية الثانية الى انتهاء حرب السويس سنة ١٩٥٦ ـ يندرج كله تحت بند تعزيز الاستقلال الوطني ، ثم ان الكثير مما جرى بعد سنة ١٩٥٦ وحتى حرب سنة١٩٧٣ لا يمكن تصنيفه بأمانة الا على أنه جهود مستمرة لصيانة الاستقلال الوطني ضد محاولات الاستعمار الجديد الذي يحاول أن يتسلل الى مواقع الهيمنة القديمة .

٢ ـ يجيء بعد ذلك صراع في المنطقة على المستوى الدولي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . فالشرق الأوسط بموقعه الجغرافي من الاتحاد السوفيتي ومن أوروبا الغربية ، وبأهميته السياسية والاستراتيجية، وبتراثه الحضاري ، وبثرواته الهائلة الجديدة ـ كان حتماً ان يكون ساحة صدام بين القوتين العظميين. الولايات المتحدة تريد أن تقفل ابواب المنطقة في وجه الاتحاد السوفيتي ،والاتحاد السوفيتي يريد أن يفتح هذه الأبواب . فالولايات المتحدة كانت لأسباب طويلة داخل هذه المنطقة ، في حين أن الاتحاد السوفيتي كان خارجها .

وبتفاعلات هذا الصراع فقد كان يمكن فهم رعاية الولايات المتحدة للأوضاع التقليدية القديمة في المنطقة وعدائها لمحاولات التغيير فيها على المستوى السياسي والاقتصادي والثقافي . بل وكان يمكن أيضا فهم منطق التحالف الأمريكي مع اسرائيل باعتبار أن اسرائيل هي سلاح الردع النهائي ضد كل محاولات التغيير . وذلك برغم أن اسرائيل ـ بأحلامها الصهيونية ـ كانت عنصر اقلاق في المنطقة . ولكن الولايات المتحدة وجدت أن أسباب القلق سابقة على قيام اسرائيل ، وأنها نتيجة محققة لحركة يقظة عربية عميقة ، وهكذا فانها لم تتحرج من تبني سياسات صعبة وخطرة تقوم على تنافر ناشيء من حقيقتين يصعب التوفيق بينهما : مصالحها النهائية مع العرب ، وأمنها النهائي مع اسرائيل !

وبتفاعلات هذا الصراع أيضا فقد كان يمكن فهم دوافع الاتحاد السوفيتي ـ أو على الأقل جزء من دوافعه ـ الى مساندة حركة التغيير في المنطقة والتي مثلتها حركة الثورة الوطنية .

من هنا كانت صفقات السلاح للمنطقة ، ومن هنا كان التأييد السياسي الواسع في معارك العرب الحربية الكبرى من سنة ١٩٥٦ الى سنة ١٩٧٣ ، ومن هنا كانت المساعدات الكبيرة في مشروعات التنمية الضخمة من سد النيل العالي عند أسوان الى سد الفرات في قلب جزيرة الشام .

٣ ـ كان الصراع الثالث في المنطقة ـ وعلى المستوى الاقليمي هو الصراع

العربي الاسرائيلي الذي نشأ من ادعاء أسطوري بوحدة بين « اله وشعب وأرض » ، وبمقتضى هذه الأسطورة فان ارادة الاله لا تتحقق الا بقيام « اسرائيل » على كل أرض فلسطين ، وربما حولها أيضا لأن الأساطير في العادة لا تهتم كثيرا بخطوط الحدود ، فالأسطورة بطبيعتها مطلقة ، وهي بطبيعتها أيضا متناقضة مع التاريخ لأن التاريخ انساني ومن ثم فهو نسبي .

ولم تكن الأمة العربية في حاجة الى علم عميق لكي تعرف أن الأسطورة تستغل في مطالب مادية وغير أسطورية تستهدف فصل مشرق العالم العربي عن مغربه ، واقامة دولة « حامية عسكرية » مسلحة في قلبه موكلة بمهمة ارهابه واخضاعه ، ثم انها طول الوقت كانت مكلفة بتعويق جهوده لاعادة بناء نفسه ولتحقيق وحدته ، واستنزاف طاقاته .

وكانت تفاعلات هذا الصراع على المستوى الاقليمي هي أبرز معالم الحركة الجياشة على أرض الشرق الأوسط خلال الأربعين سنة الماضية . وكان واضحا أن هذا الصراع لا يمكن أن ينتهي تماما بحل وسط لأنه لا يوجد حل وسط مع المطلق ... ولا حل وسط في صراع بين الأسطورة والتاريخ .

هناك رقعة أرض واحدة ، وهناك نزاع بين طرفين عليها . طرف عربي فلسطيني يملك حق التاريخ معززا بحق الوجود الفعلي على الأرض ، وطرف اسرائيلي يردد تعاويذ أسطورة ويحمل صك انتداب بتوقيع الاستعمار معززا بمدافع ودبابات وطائرات ...

ليس هناك حل نهائي ، وانما هناك مراحل لا بد من اجتيازها، وهناك موازين قوة لا بد من تعديلها ، وكان ذلك هو المضمون الحقيقي لحركة التفاعلات في المنطقة ابتداء من الأربعينات الى السبعينات .

٤ ـ وكان الصراع الرابع في المنطقة ـ وعلى المستوى الداخلي ـ هو الصراع العربي العربي ، أو بمعنى أصح الصراع الاجتماعي في العالم العربي ، بين القديم والجديد طلبا للتحديث ، وبين الأغنياء والفقراء طلبا للعدل والفرصة المتكافئة ، وبين الحكام والمحكومين طلبا للديمقراطية السياسية .

ان هذا الصراع وصل في بعض الظروف الى شبه حرب أهلية ، ولم يكن ذاك غريباً ، بل لعله كان في ناحية من نواحيه دليلا على وحدة شعوب الأمة العربية وعلى حيوية هذه الشعوب .

والتاريخ يعلمنا أن أمما كثيرة ـ غير الأمة العربية ـ لم تستطع تحقيق وحدتها القومية ولا توازنها الاجتماعي بدون اقتراب من حافة الحرب الأهلية أحيانا .

وهكذا فان كثيرا من وقائع التاريخ العربي الحديث لا يمكن تفسيره الا على ضوء هذه الحركة العربية الحثيثة نحو الوحدة ونحو العدل الاجتماعي . وعلى أي حال فقد كانت هذه الحركة تصل الى حد التأزم مرة وتصل الى درجة الانفراج مرة أخرى وفقا للضغوط الموجهة الى الأمة العربية من خارج أرضها واستجابة لمقتضيات هذه الضغوط .

كان ذلك كله مفهوما ومقبولا . . . أمة على لقاء مع أقدارها تواجه أربعة صراعات أساسية واضحة لها قواعدها ولها موازينها ولها حركتها وسياقها :

- صراع عربي استعماري
- صراع دولي أمريكي سوفيتي
- صراع عربي اسرائيلي
- صراع عربي عربي

ان هذه الصراعات الأربعة تشابكت وتداخلت أحيانا ، ولكنه لم يكن صعبا في اي وقت من الأوقات رؤ ية حدود كل منها وأبعاده ، وتحديد مناطق وعواقب التشابك والتداخل .

وهكذا كان ممكنا حتى قرب نهاية السبعينات اطلاق التصورات واجراء القياسات ورصد المتغيرات ، والخروج من ذلك كله بتقديرات تدعو الى التفاؤ ل أو تدعو الى التشاؤم ـ لكنها تقديرات سليمة أو شبه سليمة على الأقل .

□□□□□

وفي أواخر السبعينات ـ وعلى مشارف الثمانينات ـ تعرضت المنطقة الى هذا الذي وصفته بأنه ينتمي الى عوالم مجهولة وراء العقل ووراء الزمن وأكاد أقول وراء الطبيعة .

وأتساءل ـ وربما تساءل غيري معي ـ في حيرة بل وفي ذهول :

١ ـ ماذا حدث في الصراع العربي الاستعماري ؟

ـ لا أعرف !

ولكن من المؤكد أن شيئا خطيرا قد حدث ، ذلك أنه حين يجيء يوم تصبح فيه الولايات المتحدة الأمريكية هي « مهندس » المستقبل في المنطقة ، فمعنى ذلك أن كل القواعد والموازين والحركة التي التزم بها العمل العربي خلال ثلاث حقبات متصلة كانت من اخصب فترات تاريخه ـ قد ذهبت الى الضياع .

لكي أكون واضحا فلا بد أن أقول بأنه ليس صحيحا أن هناك طرفا عربيا واحدا سمح أو سعى الى تنصيب الولايات المتحدة « مهندسا » لمستقبل المنطقة ، وانما الصحيح أن هناك أطرافا عديدين وكثيرين .

هناك طرف بايع صراحة ، ولكن هناك ـ ايضا ـ اطراف أخرى على استعداد للمبايعة عند أول منحنى على الطريق !

٢ ـ ماذا حدث في الصراع الدولي الأمريكي السوفيتي ؟

ـ لا اعرف !

ومع ذلك فان هذا الصراع بين العملاقين كان يعطي للأمة العربية هامش مناورة فسيح ، وكان يمنحها حرية للتصرف وحدا معقولا من الأمان في لحظات تتقرر فيها مصائر .

ورغم ذلك فقد كان العرب أنفسهم هم الذين عبثوا بالميزان الدولي الدقيق الذي كان يلعب دوره في المنطقة .

أن « جروميكو » ـ وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ـ قالها بمرارة لزعيم عربي

التقى به أخيرا : « نحن لا نستطيع ـ ولا نملك ـ أن نكون عربا أكثر من العرب . اذا كانت هذه الحلول هي ما تريدونه بعد كفاحكم الطويل وتضحياتكم المضنية ، فليس في وسعنا أن نقاتلكم دفاعا عن حقوقكم » !

وكان تأليب العرب على الاتحاد السوفيتي هدفا واضحا من أهداف « هنري كيسنجر » عند اقترابه لأول مرة من أزمة الشرق الأوسط بطريقة مباشرة ، وقد قالها لي ونقلتها عنه في حينها :

« ان الاتحاد السوفيتي لا بد أن يخرج من المنطقة ، وأول خروجه أن يختفي السلاح السوفيتي فيها .

لكننا لا نستطيع نحن مواجهة الاتحاد السوفيتي بهذا المطلب الضروري ، لأن مثل هذه المواجهة تؤثر على سياسة الوفاق بيننا وبينه . لهذا يجب أن يقوم العرب أنفسهم بهذه المهمة اذا كانوا يريدون منا ممارسة نفوذنا على اسرائيل » .

وخرج الاتحاد السوفيتي ، ولم تمارس الولايات المتحدة نفوذا على اسرائيل !

وبطل مفعول التوازن الدولي الذي كان يؤدي دوره في المنطقة ، وخلت أركانها الأربعة لقوة دولية واحدة تحل وتربط وتأمر وتنهى !

٣ ـ ماذا حدث في الصراع العربي الاسرائيلي ؟

ـ لا أعرف أيضا ؟

ان أسباب ودواعي الصراع لم يجر حلها على وجه اليقين ، ومع ذلك فان الظواهر الضرورية لحركة هذا الصراع لم تعد واضحة أمامي على الأقل .

ان كل صراع لا يمكن أن يكون حيا الا اذا عبرت عنه موازين قوة حقيقية ، وبخروج مصر ـ حتى وان كان الخروج مؤقتا ـ من دائرة الصراع العربي الاسرائيلي ، فان موازين القوة الحقيقية كلها تتعرض لحالة من التفكك مخيفة ومن العجز مهينة ، والدليل على ذلك أن اسرائيل قررت من جانب واحد

ونفذت بارادة منفردة عملية واسعة النطاق لضم معظم أراضي الضفة الغربية لها ، ولم تحدث ردة فعل مرئية أو محسوسة لهذا التحدي .

وهكذا لم يعد هناك صراع عربي اسرائيلي ، وانما اصبح هناك ـ في هذه الفترة القلقة على أبواب الثمانينات ـ املاء اسرائيلي مطاع لأنه ليس هناك ما ـ أو من ـ يعترضه !

٤ ـ ماذا حدث في الصراع العربي العربي ؟

ـ لا أعرف كذلك !

كانت هناك تناقضات اجتماعية ومجموعات قيم مختلفة ، ولم يكن أمرها خافيا ، بل ان بعضها ـ كما قلت ـ كان دليلا على وحدة الأمة وحيويتها ، وكانت حدة هذا الصراع تزداد أو تخف تبعا للضغوط الموجهة الى الأمة من خارج أرضها ، وكان هذا ـ بدوره ـ دليلا على قدرة الأمة على الاستجابة المرنة للأجواء المحيطة بحركتها التاريخية .

لكن الأحوال الآن كرنفال أزياء وألوان وأضواء !

من هو داعية التقدم ، ومن هو داعية العودة الى الوراء ؟ من هو المستسلم ، ومن هو الصامد في ساحة الصراع ؟

أين هي الملامح الحقيقية للأبطال ، وأين هي الأقنعة المستعارة ؟ أين ما خلقه الله طبيعيا وأصيلا ، واين ماصنعه فن التجميل والتنكر أو حتى مبضع الجراح ؟ !

□ □ □

ان مجمل هذه الصراعات الأساسية الكبرى في المنطقة هو الذي كان يعطي للنظام العربي شكله العام واتجاهاته الرئيسية .

وباختلال القواعد والقوانين والموازين في هذه الصراعات اختل النظام العربي عند قوائمه .

وكان كل الدارسين الباحثين في أحوال المنطقة يختلفون حول نقطة واحدة في أمر النظام العربي :

هل كان هناك بالفعل نظام عربي مكتمل الشروط والتكوين ؟

أم أن النظام العربي كان مجرد مشروع توافرت له الشروط ولكنه ما زال تحت التكوين ؟

والنتيجة بعد كل ما حدث واحدة .

اذا كان هناك نظام عربي مكتمل ، فقد اهتزت قوائمه عند الأساس .

اذا كان ما هناك هو مجرد مشروع نظام ، اذن فقد ضاع رسمه وتبعثر تصميمه .

وحتى اذا تركنا أمر النظام ـ مكتملا أو مشروعا ـ فان أوضاع كل دولة في المنطقة على حدة كافية وحدها من أول نظرة لكي تكشف المأزق الذي تواجهه هذه الدول حتى في حدود ممارستها لادارة سياساتها الذاتية .

أي دولة في المنطقة الآن تشعر براحة أو أمان ؟

ربما كان لبنان أكثر الذين قاسوا ، فلقد كانت حياته كلها قائمة على ملابسات وعواقب مجموعة القواعد والقوانين والموازين التي تحكم الصراعات المؤثرة على المنطقة وعلى النظام العربي .

ربما لهذا السبب كان لبنان أول الضحايا ، وكانت ضريبة الضياع التي دفعها أفدح الضرائب . ومع ذلك ـ وبعيداً عن لبنان ـ من الذي يشعر بالراحة أو بالأمان ؟

هل مصر مستريحة مطمئنة الى عزلتها الكاملة عن العالم العربي ؟

هل السعودية مستريحة مطمئنة الى الخلاف بينها وبين مصر وآثاره ؟

هل سوريا مستريحة مطمئنة الى الأعباء التي تتحملها على الجبهة مع اسرائيل ، أو على الجبهة الثانية في لبنان ؟

هل العراق مستريح ومطمئن الى أحواله في هذا الموقع الدقيق فوق رأس الخليج وبين سوريا وايران ؟

هل دول الخليج كلها مستريحة ومطمئنة الى ظهرها المكشوف عربيا وواجهتها المفتوحة أمام العواصف التي تهب على الخليج ؟

هل الثورة الفلسطينية مستريحة ومطمئنة الى الأجواء المحيطة بها والى الساحات التي تجد نفسها غير قادرة على فض الاشتباك فيها ؟

وغير هؤلاء جميعا من الذي يشعر بالراحة والاطمئنان ؟

ان القواعد والقوانين والموازين التي عرفتها هذه الدول جميعا واستطاعت أن تصل الى تعايش حتى مع اقسى احتمالاتها أصابها خلل شديد .

الأوراق كلها اختلطت حتى على حافة النظام .

ولنأخذ مثالا من ايران واسرائيل .

كانت ايران تحت حكم الشاه « محمد رضا بهلوي » قوة معاكسة تعترض النظام العربي . وانهار حكم الشاه أمام اعصار الثورة الاسلامية ، وتحول الخصم المحتمل الى صديق محتمل ، ومع ذلك فان الأحوال العربية الآن تبدو غير مستعدة وغير جاهزة لهذا التحول الذي جاءت به المعجزات .

وكانت اسرائيل ـ ولا تزال ـ عدوا لدودا يتربص بالنظام العربي وينتهز أية فرصة للانقضاض عليه بالنار والحديد . ولم تتغير اسرائيل ، وليس واردا امكانية تغيرها ، ومع ذلك فان اسرائيل الآن تنفذ الى مواقع كانت في موضع القلب من النظام العربي ؟ !

أي دليل على الخلل الشديد أكثر ؟ وأي شاهد على الفوضى العارمة أوضح ؟

□□□

المذهل أن أحدا لا يحاول تصحيح الخلل ـ حتى مجرد محاولة ـ ثم ان أحدا لا يحاول ـ حتى مجرد محاولة ايضا ـ أن يمد الى هذه الفوضى العارمة يدا ترتب أو تدبر .

في واشنطن قال لي أحد مستشاري الرئيس « جيمي كارتر » :

ـ نحن نتصور أن الخلل الذي حدث في المنطقة كله يرجع الى الخلاف بين مصر والدول العربية المعتدلة .

ولقد حاول الرئيس كارتر .

أوفد سفيرنا السابق في القاهرة ـ وكان سفيرا سابقا لنا في السعودية ـ برسائل الى القاهرة والرياض يطلب وقف الحملة الاعلامية بين الاثنين لأنها تدفع الموقف في العالم العربي كله الى حافة خطرة .

يبدو لي أن أحدا لا يريد تطويق هذا الخلاف .

هناك في القاهرة ـ كما يبدو لنا ـ من يتصورون أن خلافهم مع السعودية هو ورقة ضغط على الولايات المتحدة ، ومنطقهم في هذا كمن يقول لنا « نحن سايرناكم في الصلح مع اسرائيل ، والنتيجة أننا فقدنا دعما عربيا كنا نحصل عليه ، والآن ليس أمامكم بديل الا تعويضنا عنه . ثم أنكم مسئولون ـ غير تعويضنا عنه ـ عن تغطية موقفنا سياسيا في محادثات الحكم الذاتي ، والا تفاقمت الأمور أكثر في انشرق الأوسط » .

ان الولايات المتحدة في موقف حرج ازاء صداقتها التقليدية مع السعودية ومصالحها الطائلة هناك .

ولكننا في موازنة بين اسرائيل ومصر من ناحية وبين السعودية من ناحية أخرى نشعر أنه ليس أمامنا غير الوقوف مع الأطراف الأقوى في المنطقة ـ اسرائيل ومصر .

السعودية على أي حال لن تستطيع أن تذهب بعيدا . اذا كنا نحتاجها مرة فهي تحتاج الينا مرتين .

كان يجب أن تسمع لهجة الرياض عندما تأزم الموقف على حدودهم مع اليمن الجنوبية ـ ونظامها الماركسي ـ كانوا في حالة ذعر شديد وبالطبع لم يكن هناك من يتوجهون اليه غيرنا .

واستطرد يقول :

ـ ان الحكم في السعودية لا خطر عليه .

الأسرة المالكة هي البديل الوحيد لاستمرار وحدة المملكة في دولة .

ثم ان لديهم من فوائض الأموال ما يستطيع تغطية كل المشاكل والتناقضات .

قلت لمحدثي ، وكنا نتناول طعام الافطار في أحد النوادي السياسية الاجتماعية الشهيرة في واشنطن ، وهو نادي « المتروبوليتان » :

ـ أخشى أنكم على خطأ . . . انكم تخلطون بين المناورات وبين السياسات .

ان محاولة ترقيع الخلاف بين القاهرة والرياض يبقى في اطار المناورات ، وهو لن يحل شيئا .

القضية أعمق من هذا عند الأساس في العالم العربي . انكم لأسباب عملية ومؤقتة تناولتم بخفة وعبث قواعد وقوانين وموازين المنطقة .

واذا كنتم تتصورون أن ذلك في مصلحتكم ، فأنا أعتقد أنه ليس في مصلحة أحد .

ما الذي أدت اليه الخفة والعبث في تناول أوضاع المنطقة ؟

ان صراعاتها الأساسية بغير حل ، وحلها على أي حال فوق طاقة أي

طرف في العالم بما فيه انتم وكل ترساناتكم النووية .

وعلى أي حال فما هي النتيجة المحققة لما جرى في المنطقة حتى الآن ؟

كما قلت لك فان الصراعات الأساسية فيها لم تحل ، ولكنها دفعت الى حافة ضياع .

كانت هذه الصراعات الأساسية في المنطقة قوة جذب لكل طاقاتها . ان قوة الجذب تعثرت حركتها ـ بعد كل ما جرى ـ والنتيجة المحققة هي أن الصراعات الثانوية سوف تبدأ في الظهور . ان المنطقة حبلى بصراعات ثانوية ولكنها متفجرة . صراعات طبقية ، دينية ، طائفية ، قومية . بل وحتى صراعات على خطوط حدود .

حين ضاعت قوة جذب الصراعات الأساسية الكبرى ، قفزت الصراعات الثانوية إلى السطح ، وهكذا فان المنطقة تدخل الى حالة من الفوران والغليان الداخلي لا تحكمه ضوابط .

اذا كان لي أن أستقرىء التاريخ فاني أشعر بتفاؤل تاريخي ، حتى ازاء زحف هذه الصراعات الثانوية على المنطقة . أعتقد جازما أن هذه الصراعات الثانوية وتفاعلاتها سوف تعيد الحيوية مرة أخرى الى الصراعات الأساسية في المنطقة ، ذلك على المدى البعيد . ولكن على المدى القريب والمتوسط فاني أرى ـ مع الأسف ـ عواصف نار وبراكين وزلازل وانفجارات مدوية .

ربما اشفقت على المنطقة من تكاليف مرحلة من الألم والعذاب ، ولكن التاريخ سوف يؤكد درسه فوق كل المناورات التي لا تصدر عن سياسات .

واستطردت أقول :

ـ انني حتى على مستوى ما سمعته منك الآن لا أعتقد بصواب منطقكم ولا بصحة تحليلكم للأمور .

انت تتصور أن أخطر ما في الامر اليوم خلاف السعودية ومصر ، وتقول لي

انكم تحاولون فيه . وأنا أدعي انكم لا تحاولون بصدق واخلاص حتى في حدود المناورة .

أتصور أنكم تريدون عزلة مصر ـ ولو مؤقتا ـ عن السعودية ، ذلك يناسب أغراضكم في الضغط المنفرد على كل منهما . أتصور أيضا أن اسرائيل لا تريد أن ترى الآن جسورا بين مصر والسعودية ، لأنها تؤثر ـ في المرحلة الحالية على الأقل ـ أن تواصل تحقيق عملية التطبيع مع مصر بدون اضافة أي أسباب للحرج تقلل من سرعة خطى مصر في التطبيع . أعرف أنكم ـ مهما طال التردد ـ تريدون في النهاية ما تريده اسرائيل ، خصوصا اذا لم تكونوا تحت ضغط من أي نوع ؟ !

لا أعتقد بصواب منطقكم أو بصحة تحليلكم للأمور حتى على مستوى ما سمعته منك الآن عن سلامة الحكم في السعودية لأن الأسرة المالكة هي البديل الوحيد المطروح لوحدة المملكة ولأن فوائض الأموال قادرة على حل كل المشاكل .

ذلك تبسيط مخل للأمور .

تصورون أن حركة التاريخ هي بنيان حجج مقنعة أو تبدو مقنعة . وليس كذلك يجري التاريخ .

ان حركة التاريخ تيارات تتدافع في عنف ، وليست مناقشة مترفة بين اثنين في مكتب أو في ناد .

هناك في التاريخ شيء اسمه « نقطة الانكسار » ، وهي تصيب الأفراد وتصيب الجماعات وترغمهم على أن يتمردوا في لحظة من اللحظات حتى وان بدأ تمردهم يائسا .

أنتم لا تدرسون الظواهر . . . غيركم أيضا لا يدرس .

ان اغتيال الملك « فيصل » وقع أمام عيونكم وعيوننا جميعا ، ومع ذلك

فان كثيرين أداروا له ظهورهم قائلين« انها حادثة لا تنطوي على أية دلالة سياسية » ، ثم هربوا الى النسيان .

ما هو معنى اغتيال الملك « فيصل » على هذا النحو الذي قتل به والقاتل أحد الأقرباء من أسرته ؟

معناه أن فردا ـ لسبب ما ، حتى ولو كان السبب شخصيا ـ وصل الى « نقطة الانكسار » ، ومن ثم تمرد وضرب وهو يعرف أن مصيره هو ايضا محتوم .

الأفراد يصلون الى « نقطة الانكسار » ، وكذلك تصل اليها الجماعات والمجتمعات .

(هل تكون المأساة المحزنة التي وقعت أخيرا في الحرم المكي الشريف نموذجا آخر لجماعة وصلتِ الى « نقطة الانكسار » ؟)

حذار من الحجج المرتبة ومناقشات المكاتب والنوادي التي توهمنا بأن هناك ممكنات منطقية وهناك مستحيلات منطقية .

الأمور أعقد من ذلك بكثير .

□ □ □

ولا أظنني أقنعت محدثي ذلك الصباح في واشنطن ، وبالطبع فانني لم أقتنع .

وذهب كل منا الى سبيله .

وتمضي المنطقة كلها ـ بسبب ضياع القواعد والقوانين والموازين ـ الى سبيلها ، الى لقاء مخيف مع مقادير لا يمسك بها نظام أو تدبير ! !

آفاق الثمانينات (١١)

بهذا المنطق يحاولون حل أزمة الشرق الأوسط !

كدت أبدأ هذا الحديث بسؤال :

- الى أين يمكن أن تذهب « أزمة الشرق الأوسط من هنا . . . الى الثمانينات وخلالها ؟

لكني راجعت نفسي وترددت . . .

ما الذي أقصده - أو يقصده غيري - حين نستعمل تعبير « أزمة الشرق الاوسط » الآن ؟

يخطر لي أن هذا التعبير ينطبق - أو يصدق - على مرحلة سابقة ، وحين كان ذكره شفاهة أو كتابة يشير على الفور الى حركة الصراع العربي الاسرائيلي والى النتائج المتداعية لهذه الحركة .

ولست أظن أن ذلك الآن دقيق ، أو حتى صحيح - لأن منطقة الشرق الأوسط الآن - والى وقت لا يستطيع تحديده أحد - حافلة بأزمات أخرى غير الصراع العربي الاسرائيلي :

● أزمة ايران مثلا والصراع بين الثورة الايرانية والقوة الأمريكية .

● أزمة العلاقات العربية العربية والتي تداخلت فيها صراعات متعددة سياسية واجتماعية ، وفي بعض الأحيان دولية (لبنان مثلا) .

● أزمة الخليج ومخارجه الى بحر العرب والمحيط الهندي حيث تتربص الآن أساطيل وتظهر على الشطآن قواعد وتختلط الاستراتيجيات البحرية للقوى الكبرى بقضايا الطاقة وفوائض الأموال مع عبوات ناسفة طائفية وعرقية .

● أزمة الحزام الشمالي لهذه المنطقة : باكستان وأفغانستان وتركيا ، حيث استيقظت فتن كانت نائمة أو كانت منومة ، وسالت دماء تبحث لنفسها عن مكان وعن هوية وعن هدف .

برغم المراجعة والتردد ، لم يكن أمامي غير أن أتعلق بالتعبير القديم لسببين :

أولا ـ انني ـ بالفعل ـ في هذا الحديث أقصد الصراع العربي الاسرائيلي . ومع أن هذا الصراع تفككت قواه وتبعثرت ، فان التعبير القديم يظل صالحا ـ ولو بالرمز ـ على الأقل حتى يتم التوصل الى تعبير آخر أكثر دقة .

ثانيا ـ ان الصراعات المتداخلة والمتشابكة مما اقتحم حدود المنطقة في الفترة الأخيرة لها الى حد ما صلة بالصراع العربي الاسرائيلي .

أزمة لبنان لها مثل هذه الصلة يقينا . أزمة ايران نفس الشيء في جزء منها . أزمة الخليج أيضا .

وهكذا أعود الى السؤال الذي كدت أبدأ به هذا الحديث أكثر استعداد لتحمله وأقل ترددا فيه :

ـ الى أين يمكن أن تذهب « أزمة الشرق الأوسط » من هنا ... الى الثمانينات وخلالها ؟

□ □ □

ولأن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت « المهندس » الدولي الوحيد المعتمد ـ ! ـ لهذه الأزمة ـ برضا بعض أطرافها أو غصبا عن بعضهم الآخر ـ فاني حاولت أثناء زيارة أخيرة لها أن أتقصى التفكير الأمريكي بشأنها ، والخطط والخطى التي يمكن أن يتوصل اليها هذا التفكير ، وربما استطعت أن أقول انني وجدت ظاهرتين رئيسيتين :

● الظاهرة الأولى ـ وهي مشجعة الى حد ما ـ وتتصل بالتفكير الأمريكي

على غير المستوى الرسمي . ولا أجازف واقول على المستوى الشعبي ، لأن الشعب الأمريكي تشغله عوالم أخرى غير أزمة الشرق الأوسط . على غير المستوى الرسمي في الولايات المتحدة ، ولدى قطاعات أمريكية واسعة لها اهتمام بالشرق الأوسط لأسباب سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو أكاديمية أو اعلامية ـ كان هناك هذه المرة وفي موضوع الصراع العربي الاسرائيلي استعداد للتفهم لم ألمسه في أي مرة سابقة .

نستطيع أن نقول ـ بغير تجاوز ـ أنهم الآن على استعداد لأن يقدروا أن هناك في أمر هذا الصراع وجهة نظر أخرى عربية لم يسمعوها من قبل ، وهم الآن على استعداد لسماعها .

ان عوامل متعددة ومتضاربة مع بعضها ساهمت في التمهيد لهذا الاستعداد الجديد .

الأثر الدرامي لمبادرة زيارة القدس ـ رغم رأيي فيها ـ عامل . وموقف الدول البترولية ـ وخصوصا السعودية ـ ضد التطورات الأخيرة في المنطقة عامل آخر . والضجة المثارة من حول ما يسمونه « عودة الاسلام » عامل ثالث . وقد تكون هناك عوامل غير ما ذكرت .

لكن الظاهرة صحيحة ، وهي أيضا صحية .

● الظاهرة الثانية ـ وهي مثبطة الى درجة أنها تستطيع الغاء أثر الظاهرة السابقة باضاعة الفرصة المتاحة من خلالها ـ هي أن الولايات المتحدة على المستوى الرسمي في حالة ضياع لا تختلف كثيرا عن أحوال الضائعين في منطقة الأزمة نفسها .

أي ان « المهندس » الدولي الوحيد المعتمد ، ليس لديه تصور ولا تصميم ولا رسومات .

والمشكلة أنه يريد أن يحتفظ بدور « المهندس الدولي الوحيد المعتمد » ، وهكذا فانه يمارسه بغير انتظار : يملأ الأرض حفرا وخنادق لا صلة بينها . . .

يكدس في كل بقعة منها جبالا من خليط متنافر من مواد بناء . . . يبعثر من حولها وفي قلبها أنواعا وأشكالا من المحركات والشاحنات والرافعات والحفارات . . . يلقي وسط هذا كله بزحمة رجال يهرولون في كل اتجاه ولا يعرفون ماذا يفعلون ، لاهم يعرفون ولا « المهندس » يعرف ! !

الظاهرة الأولى سجلتها لأنها ـ أمانة ـ تستحق التسجيل .

والظاهرة الثانية قدمت لها لأنها ـ في الحقيقة ـ محور هذا الحديث .

□

والحديث ليس لي ، ولكني مجرد ناقل له ، ولقد فضلت صيغة رواية ـ كما سمعته ـ على أي صيغة أخرى .

يكفيني أن أقول ان صاحب هذا الحديث أمريكي كبير في موقع المشاركة في صنع القرار ـ ولا أقول أكثر .

كان لقاؤنا وحديثنا في واشنطن . وكان شرطه ـ وقد قبلت به ـ أن يكون حديثه معي « لعلمي » ـ كما يقولون ـ فاذا أردت استعمال شيء منه فليس لي أن أنسبه اليه لا صراحة بذكر اسمه ، ولا ضمنا بوصف يدل عليه حتى وان أغفلت الاسم .

وبدأت ، فسألته :

ـ الى أين من هنا في أزمة الشرق الأوسط ؟

ورد دون أن تتعثر على لسانه كلمة أو حرف :

ـ لا أدري ، ولا أحد في هذه العاصمة يدري . في كل مساء نتصور أن الغد قد يفتح منفذا نتقدم منه خطوة على طريق الحل ، ولكن الغد يجيء والطريق مسدود كما كان بالأمس .

نحن لم نفقد الأمل في معجزة غير متوقعة تفتح لنا في يوم من الأيام منفذا ، لكن ذلك لم يحدث حتى الآن .

ربما تصور بعض الناس أن الطريق المسدود أمامنا في أزمة الشرق الأوسط يرجع الى طبيعة أنها سنة انتخابات رئاسة ، وأنا لا أشاركهم هذا التصور ، ربما كان لهذا العامل بعض الأثر على هوامش المأزق الحالي ، لكني أرى المأزق سابقا على معركة انتخابات الرئاسة ، وأخشى انني أراه مستمرا بعدها .

أخشى أن أعترف لك أن زمام الأمور أفلت من يدنا ، وبالطبع فاننا نأمل في استعادته حتى نستطيع ملاحقة التطورات والتفاعلات واعادة توجيهها ، لكن ذلك لم يحدث حتى الآن .

لا بد أن أعود الى الوراء قليلا لكي ندرس كيف وصلنا ووصلت الأمور الى هذه الحالة . . .

□

واعتدل في مقعده وراح يواصل حديثه :

- « سياستنا في المنطقة » - وأنت تعرف وكل الناس يعرفون لأنها ليست سرا - تسعى الى تحقيق ثلاثة أهداف :

● الهدف الأول : أن لا يكون من شأن أي شيء يحدث للمنطقة أو فيها ما يؤدي الى صدام مباشر واحتمال حرب بيننا وبين الاتحاد السوفيتي . هذه أولوية ينبغي ألا تكون موضع شك من أي طرف .

● الهدف الثاني : أن لا يكون من شأن أي شيء يحدث للمنطقة أو فيها ما يؤدي الى تعريض وجود اسرائيل وأمنها للخطر . وجود اسرائيل وأمنها خط استراتيجي ثابت للولايات المتحدة ، وهو خط لا يقبل النقاش ، وربما قبلنا النقاش حول مطامع اسرائيل البعيدة . تستطيع أن تقول اننا ملتزمون الى النهاية بضمان وجود اسرائيل وأمنها ، ولكن الالتزام لا ينسحب الى أحلام التوسع ، خصوصا عن طريق سياسة احتلال المزيد من الأرض .

● الهدف الثالث : أن لا يكون من شأن أي شيء يحدث للمنطقة أو فيها

ما يؤدي الى اعتراض استمرار تدفق النفط الى الولايات المتحدة وحلفائها تحت كل الظروف وفي كل الأوقات .

هذه هي الأهداف الرئيسية الثلاثة لنا في المنطقة ، ويمكنك أن تقول ان لنا أهدافا أخرى فرعية فيها ، بينها زيادة عدد أصدقائنا ، وزيادة نفوذنا وهيبتنا ، وزيادة التسهيلات المتاحة لنا فيها . كل ذلك بالطبع مرغوب فيه ومطلوب .

قد ترى من وجهة نظرك أن هناك تناقضات بين هذه الأهداف ، وقد تقول لي مثلا أن التزامنا تجاه اسرائيل يتعارض مع مطالبنا من البترول العربي . وقد يكون ذلك مقبولا من وجهة نظر منطقية . عليك أن تتذكر أن السياسة ليست مسألة منطق منسق ، ولكنها مسألة ادارة تناقضات متعارضة » .

. . . .

« لا أريد أن أطيل عليك في تعقب التفاصيل . أنت تعرف من وقائع أزمة الشرق الأوسط ـ خصوصا في مرحلة ما بعد حرب أكتوبر ـ مثلما أعرف ، لكنك قد لا تعرف أن مبادرة السفر الى القدس فاجأتنا .

أريد أن أكون واضحا . المفاجأة كانت في التوقيت وفي شكل اللقاء المباشر بين الطرفين . في الاخراج الدرامي للعملية كلها .

أثناء فك الارتباط الأول سنة ١٩٧٤ ، كانت هناك رسائل متبادلة بينهم في القاهرة والقدس عن طريقنا .

بعد فك الارتباط الثاني ، كانت هناك رسائل متبادلة بينهم في القاهرة والقدس . لم تكن عن طريقنا .

كنا بالطبع نتابع هذه الرسائل ، وكنا نعرف أن اقتراح لقاء مباشر بين القيادات على الناحيتين مطروح على الأقل من بداية سنة ١٩٧٦ . « رابين » هو الذي بدأ العملية ابان رئاسته للوزارة في اسرائيل .

تصورنا بعد حوادث القاهرة في يناير سنة ١٩٧٧ أن من شأن هذه الحوادث أن تعطل احتمال اللقاء المباشر ، ولكن يظهر أنهم في القاهرة توصلوا الى نتائج أخرى مؤداها أن هذه الحوادث تدعو الى التعجيل وليس الى التعطيل .

لا استطيع أن أشرح لك اسباب توصلهم في القاهرة الى هذه النتائج . تستطيع أنت تصورها بمعرفتك بالظروف الداخلية لمصر .

المهم أن الاتصالات استمرت ، ثم حدث أول لقاء مباشر على مستوى رفيع في سبتمبر ١٩٧٧ ، ولم نكن على علم بتفاصيله . أرجوك أن تصدقني اذا قلت لك اننا حتى لم نعرف أين تم الاجتماع بالضبط . كنا نعرف عموما أنه تم في المغرب . في البداية كان لدينا الانطباع بأنه تم في طنجة . ولم نعرف الا بعد ذلك بشهور أنه تم في مدينة مراكش .

الغريب أننا لم نتصور أن شيئا بحجم زيارة القدس يمكن اخراجه . تصورنا أن ما يجري كله محاولات سوف تصل - مهما كانت النوايا - الى منتصف الطريق ثم تتوقف . وهكذا فاننا كنا نرتب البديل الذي تصورناه في ذلك الوقت مخرجا وحيدا .

في ذلك الوقت رحنا نضع اللمسات الأخيرة على التحضير لمؤتمر جنيف . لا أظنني أبالغ اذا قلت لك اننا كنا نشعر بأن الطريق مفتوح أمام مؤتمر في جنيف . كان ذلك هو السبب الذي دفعنا الى اعادة الاتحاد السوفيتي للصورة عن طريق اصدار بيان مشترك أمريكي سوفيتي بأسس حل أزمة الشرق الأوسط في اطار جنيف . كان ذلك كما تذكر في أكتوبر ١٩٧٣ .

اسرئيل لم تكن تريد مؤتمر جنيف ، ولكنها كانت سائرة اليه لأن الضغوط عليها كانت شديدة .

تكشف لنا فيما بعد أنهم في مصر أيضا لم يكونوا متحمسين لجنيف لأسباب أخرى . لم يكن وارداً أو مرغوبا فيه من ناحيتهم أن يكون للاتحاد السوفيتي دور

في حل المشكلة . ثم انهم كانوا قد فقدوا الاهتمام بحلفائهم العرب خصوصا في سوريا .

باختصار شديد فاجأتنا المبادرة بتوقيتها واخراجها الدرامي ، ولم يكن لدينا غير خيار واحد مهما كانت المخاوف التي ساورت بعض خبرائنا المتخصصين في شئون الشرق الأوسط .

هذه خطوة لم يكن يحلم بها أحد تحققت .

ثم انها تحققت بدون معارضة مؤثرة من الناحية العربية . بل لقد بدا أن عناصر كثيرة في العالم العربي تؤثر أن تعطي المبادرة ميزة الشك عساها تحقق شيئا .

من ناحيتنا نحن أيضا كانت المبادرة قد خلقت حركتها الذاتية بصرف النظر عن أية نتائج حقيقية يمكن أن تسفر عنها في مجال حل الصراع العربي الاسرائيلي .

بعد المبادرة تغير وجه المشكلة في الشرق الأوسط ، وتغيرت اتجاهات الريح .

ظللنا لفترة طويلة بعد المبادرة نتصور أن « بيجين » سوف يدفع فيها ثمنا معقولا يغري الذين أثروا اعطاءها ميزة الشك بالدخول في اللعبة .

الحقيقة اننا تصورنا أن الاجتماعات التمهيدية التي جرت في مراكش ، ثم الاجتماعات التي لحقتها في اطار المبادرة في القدس ـ وصلت بين الطرفين على الأقل الى حد أدنى من الاتفاق على رؤوس المسائل . ما تصورناه لم يكن صحيحا . لم يدفع « بيجين » لا في الاسماعيلية ولا في كامب دافيد .

كانت هناك معارضة شديدة لفكرة عقد مؤتمر في كامب دافيد ترتهن به هيبة الولايات المتحدة ورئيسها . كان ذلك رأي الخبراء في شئون الشرق الأوسط . انعقد المؤتمر على أي حال . ذات يوم سوف تظهر تفاصيل كل ما حدث فيه .

اننا اطلعنا على محاضرة لك في جامعة « أكسفورد » أشرت فيها الى تعهد أمريكي صريح من رئيس الولايات المتحدة بأن يضغط على اسرائيل .

ذلك صحيح الى حد ما ، ولكنه لم يكن تعهدا مطلقا .

ان المفاوض المصري وصل الى قراره بدون محاولة من جانبنا لارغامه على قبول ما لا يريد .

بعد عشرة أيام في كامب دافيد لم يكن هناك تقدم . بل كان هناك تصادم بين الموقفين المصري والاسرائيلي .

في اليوم الحادي عشر وجد المفاوض المصري أنه - بسبب عناد « بيجين » - أمام خيارين :

اما أن يعلن فشل المبادرة ويرتب على ذلك ما يشاء من نتائج .

واما أن يقبل ويوقع آملا في ظروف تحسن الشروط .

ومن جانبنا فاننا قدرنا الحكمة في الخيار الذي انتهى اليه المفاوض المصري .

وهكذا كان تعهدنا له أن نبذل أصدق مساعينا وأخلص جهودنا .

كان المطلوب منا ثلاثة أشياء :

● استمرارنا في محاولة اقناع « بيجين » بأن المصلحة تقتضي بأن تصل المفاوضات المقبلة في موضوع الحكم الذاتي للفلسطينيين الى نتائج معقولة .

● أن نتولى نحن مهمة الاتصال (بالأمير) فهد و (الملك) حسين لاقناعهما بعدم المعارضة أولا ، وبالانضمام الى حركة كامب دافيد ثانيا .

● أن نتعهد بتعويض مصر عن أية خسائر تلحق بها اذا توقفت المعونات العربية عنها ، خصوصا في مجال شراء السلاح .

كانت النقطة الثانية - الخاصة بـ « فهد » و« حسين » - هي النقطة الساخنة

في تلك اللحظة . وتقرر ايفاد وزير الخارجية « فانس » بسرعة الى الرياض وعمان .

كان المفاوض المصري حريصا على سرعة حركتنا في هذا الاتجاه ، وكان آخر سؤال سمعه سفيرنا حينما صعد الى الطائرة يودع الوفد المصري العائد بعد توقيع الاتفاقية هو : « هل سافر فانس ؟ » .

ليس صحيحا ما نسب الينا من أن الرئيس « كارتر » قال أثناء المناقشات للطرف المصري : « اطمئنوا إن فهداً هنا في جيبي » .

ولست متأكداً أيضا من أن أحدا في الوفد المصري قال هذه العبارة للرئيس الأمريكي : « إن فهداً لا يمكن أن يكون الا في جيبه (في جيب الرئيس الأمريكي) » .

ليس ذلك كله معقولاً لأن فهداً بدا لنا في تلك اللحظة مفتاح الموقف .

ما حدث في الرياض بين « فهد » و « فانس » كان مفاجئا لنا . ليلة بطولها في محادثات ، ثم اتفق في النهاية على مشروع بيان معتدل وطلب الطرف السعودي تعديل بعض العبارات التي تحفظ المعنى ولكن تغير اللفظ . وتأخرت عملية تعديل هذه العبارات ، ولم تصل الصيغة النهائية الى « فانس » الا وهو في مطار الرياض يركب الطائرة .

الحقيقة أن « فانس » لم يستطع أن يقرأ الصيغة المعدلة بدقة الا وهو في الطائرة ، وحين قرأها أصيب بصدمة لأن التعديلات التي أدخلت لم تغير الألفاظ وانما غيرت المضمون ، وأبرق « فانس » من الطائرة الى « فهد » يقول له « انه اذا كان مصمما على التغييرات التي أدخلت على صيغة البيان ـ فان هذا البيان يصبح ضارا أكثر منه نافعا ، وبالتالي لا لزوم لصدور أية بيانات » . وكان « فهد » مصمما . وهكذا لم يصدر بيان على الاطلاق .

□

مع رفض السعودية الكامل لاطار كامب دافيد ، بدأ الموقف في المنطقة كله يتعقد .

بعد كامب دافيد مباشرة كانت تصوراتنا للمنطقة في أوضاعها الجديدة كما يلي :

١ ـ بتعاون مصري اسرائيلي بدأ بالمبادرة وتأكد في كامب دافيد إن خطر الحرب المحلية في الشرق الأوسط قد ابتعد . قبله كان قد ابتعد خطر المواجهة بين القوتين العظميين حينما استبعد الاتحاد السوفيتي من العملية كلها .

٢ ـ اذا تعاونت السعودية مع المحور المصري الاسرائيلي فان صورة الصراع العربي الاسرائيلي سوف تختلف تماما عما عرفناه في الأربعين سنة الأخيرة . لاحظ أن موقف السعودية هو مفتاح موقف دول الخليج كلها .

٣ ـ اذا استطاع شاه ايران أن يسوي أموره في طهران فان نظاما جديدا يظهر في المنطقة كلها يملك قدرة وقوة المحافظة على أوضاعها يقف سدا أمام السوفيت . ويقف رادعا امام كل القوى الثورية في المنطقة .

التصورات أو المشروعات التي فكرنا فيها في ذلك الوقت انهارت كلها .

الشاه لم يستطع أن يحافظ على عرشه .

والسعودية زادت نفورا .

وبقي المحور المصري الاسرائيلي وحده .

مع هذه التطورات كانت أحوالنا على غير ما يرام . وكان علاجنا للمشاكل قاصرا. أعترف لك بهذا كله .

كان هناك ظن بأن وزارة الخارجية غير قادرة بسبب أفكار مسبقة لدى خبرائها على ادارة الحركة الجديدة . وزاد الأمر سوءاً حينما أعلن « فانس » أنه سواء نجح الرئيس « كارتر » في الانتخابات القادمة أو لم ينجح فانه لا ينوي أن يخدم مدة ثانية في وزارة الخارجية .

هكذا فان جهازنا الدبلوماسي لم يصبح موضع شك من بقية الادارة فحسب وانما أصبح يشك في نفسه .

وهكذا تقدم مستشار الرئيس للأمن القومي « برجينسكي » ليملأ الفراغ الذي نجم عن انسحاب وزارة الخارجية من ادارة الموقف .

« برجينسكي » كان مشغولا بقضايا أخرى : اتفاقيات « سولت » مع السوفيت ، وعلاقاتنا مع حلفائنا في حلف الاطلنطي ، والتطورات الداهمة في ايران .

وهكذا كلف « روبرت شتراوس» بمهمة ادارة الجهد الأمريكي في الصراع العربي الاسرائيلي . مشكلة « شتراوس » أنه لم يكن خبيرا بكثبان الرمال المتحركة في الشرق الأوسط ، وفي نفس الوقت فانه رجل يحسن الظن ـ جدا ـ بكفاءاته وقدراته . اكتشف « شتراوس » بعد قليل أن الشرق الأوسط ليس لعبته ، وهو رجل لايحب الفشل . ثم اننا كنا في حاجة اليه لادارة المعركة الانتخابية للرئيس خصوصا بعد تحدي « ادوارد كنيدي » له .

« شتراوس » قرر الانسحاب هو الآخر .

□

ماهي نتيجة هذا كله ؟

أولا ـ لم يعد لدينا مشروع أو خطة لادارة الموقف . الرفض السعودي عقد تصوراتنا الأساسية . والثورة الايرانية هدمت ما تبقى منها .

وثانيا ـ لم يعد لدينا مسئول عن ادارة المشروع أو الخطة . مع أنه لم يعد لدينا أي منها . وقد نجد شخصا نعينه في مكان « شتراوس » (جرى تعيين « لينوفيتش » بعد ذلك) ـ لكن صلب المشكلة يظل باقيا بعد تعيينه .

هكذا لم يعد لدينا غير متابعة ما يحدث بين القاهرة والقدس . والحقيقة

أنه كان مشجعا ، فقد توطدت الصداقة بين الطرفين ـ هكذا تقول معلوماتنا من حيفا بعد اجتماع القمة المصري الاسرائيلي الأخير فيها .

لم نعد ندير شيئا ، ولم يعد عندنا ما نديره ، ولم يكن هناك مدير مفوض من ناحيتنا .

لم يكن أمامنا ما نفعله غير متابعة العلاقات الحميمة الجديدة بين الأطراف في القاهرة والقدس . والواقع أننا لم نعد نعرف هل نشجع هذه العلاقات الحميمة الجديدة ، أو أنه كان مفروضا علينا أن نطالب بالحذر والتروي .

على أي حال كان زمام الحركة في أيد غير أيدينا . وكذلك فان تطورات ايران أصبحت شغلنا الشاغل . لا أخفي عليك أننا غضبنا على « حسين » وغضبنا على « فهد » .

كنا نعتبر « حسين » صديقا ، لكنه في اللحظة الحرجة رفض أن يلعب دوره . كان هنا في الولايات المتحدة قبل أيام (وقت هذا الحديث) وكان رأي بعض خبراء وزارة الخارجية أن يستقبله الرئيس في واشنطن ، ولكن البيت الأبيض انتهى الى رفض استقباله في واشنطن حتى يعرف أنه لا يستطيع معارضة مشروعاتنا وخططنا في المنطقة ثم يتوقع بعد ذلك أن يدخل الى المكتب البيضاوي ويجلس مع رئيس الولايات المتحدة .

لقد تأثر الملك « حسين » حين أخطرناه باعتذار الرئيس عن استقباله . لم يكن في وسعنا أن نفعل شيئا آخر . هو المسئول عما فعله أو لم يفعله !

السعودية مشكلة أعقد .

الملك « خالد » كان هنا في الولايات المتحدة يعالج في فيلادلفيا أثناء احدى جولات المفاوضات بين مصر واسرائيل . والرئيس « كارتر » اتصل به تلفيونيا وطلب مباركته لعملية السلام ، وقال له الملك على التلفون : انه يبارك كل جهود السلام .

الأمير « فهد » كان هنا أيضا بعد المبادرة ، ولم يشعر الرئيس أثناء المقابلة أنه يعارضها معارضة أساسية ، وقد شرح للرئيس أهمية العنصر الفلسطيني ، ثم كان الانطباع الذي خرجنا به جميعا بعد المقابلة أن « فهد » سوف « يمشي في الخط » . كانت تقارير سفارتنا في جدة تؤيد هذا الانطباع ، وظلت تؤيده الى ساعة متأخرة من الزمان !

□

اننا طلبنا من خبرائنا تفسيرا ـ بعد ذلك ـ لموقف « فهد » الذي كان مفاجئا لنا . كان صدمة . لقد كان تقديرنا أنه رجل قوي . اما أن تقديرنا له لم يكن مصيبا ، واما أنه رفض ممارسة قوته .

خبراؤنا شرحوا لنا بعد ذلك أننا أخطأنا في فهم « لغة » فهد .

الأمير له قاموس خاص لا بد أن ندرسه حتى نستطيع أن نتعامل معه .

قال لنا الخبراء :

عندما يقول « فهد » عن اقتراح من المقترحات إنه : « شيء مهم » . فهذا لا يعني أنه وافق عليه ، وانما معناه أنه يفكر فيه وإذا قال عن اقتراح إنه : « مفيد » ـ فهذا معناه أنه متردد في أمره .

واذا قال عن اقتراح إنه : « فكرة لا بأس بها » ـ فمعنى ذلك أنه أقرب الى الرفض .

واذا قال عن اقتراح أنه : « سوف يتشاور فيه مع الأخوان » ـ فمعنى ذلك أنه يرفضه رفضا قاطعا .

لكننا جميعا لم نكن نفهم قاموس « فهد » . الآن فهمنا .

أخطأنا حين تصورنا قبوله على أساس عبارات مثل : اقتراح مفيد ، واقتراح مهم ، وفكرة لا بأس بها ، الى آخره .

عندما تسمح لنا الظروف بحركة أخرى ، سوف نعرف كيف نتفاهم مع «فهد» .

لكن المعضلة هي متى تسمح هذه الظروف ؟

هذه هي الصورة في الأحوال الراهنة . . . الآن والسنة القادمة على الأقل . وبعدها من يعرف ؟ !

والآن ما هو تعليقك ؟ !

□ □ □

لم يكن لدي تعليق ، ولم أكن أشعر بالرغبة في قول شيء .

ها هو المهندس الدولي الوحيد المعتمد « للأزمة أمامي . وهذه تصوراته ومشروعاته والنتائج التي انتهت اليها .

لم يعد هناك تصور أو مشروع .

ولم يعد هناك مسئول عن ادارة تصور أو مشروع .

وعلى الظروف أن تتيح لهم منفذا .

وحتى يجيء هذا المنفذ من السماء فانهم منكبون على وضع ودراسة قاموس عن «اللغة» الخاصة لولي عهد السعودية .

وهكذا تطل الثمانينات على أزمة الشرق الأوسط ! !

آفاق الثمانينات (١٢)

محاولة للبحث عن أسباب للتفاؤل

أريد في هذا الحديث الأخير من هذه السلسلة عن آفاق الثمانينات أن أتفاءل ، أوعلى الأقل أبدو متفائلا ، فليس مستحبا أن يقف واحد من الناس على عتبة مرحلة جديدة من الزمان ثم لا يكون عنده ما يقدمه للآخرين غير رؤ ى رمادية لا تبشر بحلم أو تعد بسعادة !

واشهد أنني حاولت أن أسلك طرقا مختلفة بحثا عن تفاؤ ل ـ لا تصنعه الأوهام ـ ولكني في كل مرة وجدت نفسي ـ على الرغم مني ـ أعود من منتصف الطريق قانعا من الغنيمة بالاياب كما يقولون .

□ □ □

ساءلت نفسي مثلا :

ـ السنا نتحدث جميعا عن « حتمية التاريخ »؟ أليس أن هذه « الحتمية » تعطينا أملا في أن ما نراه من حولنا غير قادر على الاستمرار ، وأنه محكوم عليه بأن يغير نفسه أو يتغير؟

وكان ردي على نفسي كما يلي :

ـ نعم ، هناك شيء يمكن أن نسميه « حتمية التاريخ » ، لكننا نخطىء أحيانا في فهمه .

« حتمية التاريخ » ليست قدرا يفرض نفسه علينا سواء أردناه أو لم نرده . . . سواء سعينا اليه أو قصرنا دونه .

« حتمية التاريخ » في جوهرها هي توافر ظروف موضوعية لامكانية تحقيق هدف عظيم من أهداف شعب أو أمة .

علينا أن نلاحظ أن « توافر الظروف الموضوعية لامكانية تحقيق هدف » لا يعني تحقق هذا الهدف تلقائيا ومن ذات نفسه .

وفي الغالب أن تحقق الهدف يحتاج - بعد توافر الظروف الموضوعية - الى عنصرين :

لحظة تاريخية مناسبة

وقيادة تاريخية قادرة .

وعلى سبيل المثال فان الظروف الموضوعية في العالم العربي أصبحت مهيأة بعد الحرب العالمية الثانية لثورة تحرير شاملة .

اللحظة التاريخية المناسبة جاءت حين قامت ثورة مصر سنة ١٩٥٢ .

والقيادة التاريخية القادرة جاءت مع ظهور « جمال عبد الناصر » وبروزه دوره القومي سنة ١٩٥٤ .

هكذا تحولت « الامكانية » التاريخية . . . الى نتيجة « حتمية » .

نأخذ مثالا آخر يختلف :

ان الظروف الموضوعية لشعوب الأمة العربية بعد سنة ١٩٦٧ كانت تتحول بسرعة . لقد قبلوا تحدي الهزيمة ، وراحوا يعدون لأزالة آثارها ، وتنامت قوتهم الدولية والعسكرية والاقتصادية ، وأصبحت موازين القوة المتغيرة تعطيهم « امكانية تاريخية » لتحقيق هدف عظيم .

اللحظة التاريخية المناسبة جاءت بقرار الحرب في أكتوبر ١٩٧٣ ، ثم

اتسعت أبواب هذه اللحظة التاريخية بذلك الانفجار في قوة البترول العربي وفوائض أمواله .

« الامكانية التاريخية » موجودة ، و « اللحظة التاريخية » جاءت .

لكن « الامكانية » ضاعت « واللحظة » أفلتت ، لأن القيادات العربية كلها لم تستطع أن تتحرك على مستوى التاريخ .

(كنت أناقش هذه الفكرة مع أحد المستشرقين الأوروبين أخيرا في باريس ، وكان له عليها تعليق لافت للنظر .

قال لي :

- انني أظن أن العرب أخلوا بعقدهم مع الله .

انني أذكر من القرآن تلك الآية التي تقول « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

لأنكم « خير أمة أخرجت للناس » فان الله قدم اليكم نصيبه من العقد مقدما .

قام هو بتغيير أوضاعكم سنة ١٩٧٣ : أعطاكم نصرا استراتيجيا في أكتوبر ، ثم أضاف اليه قوة من البترول والمال ما لم يكن يخطر لأحد على بال . لكنكم ظللتم على حالكم .

تغيرت بارادته ظروفكم ، ولكنكم - بارادتكم - رفضتم أن تغيروا أنفسكم .

نفذ نصيبه من العقد معكم . . . وأنتم لم تفوا بنصيبكم في العقد معه !

□

وساءلت نفسي أيضا :

- هل يعقل أن تكون « الامكانية التاريخية » يوما واحدا ، فاذا غربت شمسه ضاعت ؟

وكان ردي على نفسي كما يلي :

- ان « الامكانية التاريخية » ليست يوما واحدا بعده الظلام ، لأن الذي يصنع هذه « الامكانية » هو مزيج من آمال ونضال الشعوب ، وآمال ونضال الشعوب ليست عود ثقاب يشتعل بسرعة ثم ينطفىء .

وعلى سبيل المثال فأنا أعتقد أن الظروف التي ابتعدت فيها مصر عن العمل العربي المشترك بعد اتفاقيات كامب دافيد بعثت من جديد في العالم العربي جوا تهيأت فيه امكانية تاريخية لصمود عربي راسخ وشديد .

ان مصر كانت - وسوف تظل - قلب العالم العربي بغير شك . ولقد اهتز الوجدان العربي بعمق لظروف أبعدت مصرعن دورها الطبيعي. هذا الاهتزاز في الوجدان العربي كان ينتظر « لحظة تاريخية » و « قيادة تاريخية » تمسك بالزمام وتغطي غياب مصر مؤقتا حتى ينجلي الضباب .

وبدا لوهلة أن مؤتمر بغداد هو هذه « اللحظة التاريخية » .

ولم أكن واحدا من الذين تصوروا أن هذا المؤتمر يستطيع تقديم استراتيجية جديدة للعمل العربي ، لأن الوقت كان ما زال مبكرا بعد ، فغياب طرف عربي أساسي كمصر ليس أمرا هينا يمكن تعويضه في ثلاث أو أربع جلسات في مؤتمر ، حتى على مستوى القمة في بغداد .

كان المطلوب الملح من المؤتمر في تلك « اللحظة التاريخية » أن يبلور ارادة عربية تستطيع أن تقود محاولة الصمود .

وبدا في تلك اللحظة أن « الامكانية التاريخية » قابلة للتحقيق ، خصوصا مع أحاديث ونوايا وخطط عن وحدة بين سوريا والعراق .

ولم أكن متحمسا لمحاولات ادانة السياسة المصرية في هذا المؤتمر ، فتلك ـ في اعتقادي ـ لم تكن القضية . كان اعتقادي أن صمودا عربيا في الشرق هو خدمة هائلة ليس لبقية الأمة العربية فحسب وانما أيضا لـ ـ مصر التاريخية » ، حتى تمكنها الظروف من العودة لممارسة المسئولية حين تتضح لها الحقائق وتتكشف أمامها الدروب .

ما حدث بعد مؤتمر بغداد وحتى مؤتمر تونس معزوف لا أريد أن أتيه في تفاصيله .

الذي تاه في الواقع هو « اللحظة التاريخية » رغم وجود « الامكانية التاريخية » .

وهكذا فان « الحتمية » ليست قدرا وليست قانونا مطلقا يؤدي دوره مهما كان أو يكون !

□

وساءلت نفسي :

ـ بصرف النظر عن الحتميات والامكانيات واللحظات والقيادات ـ أليس صحيحا أن مؤتمر بغداد أوقف عملية التداعي التي كان يمكن أن تنفرط بها حبات المسبحة العربية وتتناثر على الأرض ؟

وكان ردي كما يلي :

ـ كان مؤتمر بغداد مقدمة لشيء . واذا ظلت مقدمة أي شيء وحدها ـ اذن فليس هناك شيء .

وبتعبير آخر فانه اذا لم تستطع بقية العالم العربي تعويض غياب مصر ، فان هذا الغياب يصبح الواقع الوحيد في المنطقة . تكون الأمة العربية قد عجزت عن خلق واقع جديد .

حتى هذه اللحظة ليس في المنطقة واقع ـ مهما اختلفنا حوله ـ غير اتفاقيات كامب دافيد ، والباقي كله ما زال في الهواء .

و « الواقع » له حركته ، ولهذه الحركة قوة جذبها ، وبالتالي فان الحديث عن وقف التداعي يصبح ـ في أحسن الأحوال ـ نوعا من المخدر مؤقت المفعول .

□

وساءلت نفسي :

ـ هل يمكن أن يكون تردي الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في اسرائيل مبعث أمل نمني به أحلامنا ، حتى وان تخاذلت جهودنا نحن عن تحقيق هذه الأحلام ؟ !

وكان ردي كما يلي :

ـ يكاد مثل ذلك أن يكون حربا ضد عدو سلاحها مجرد الدعاء عليه في حلقة ذكر أو في يوم مبارك من أيام الموالد والأعياد !

ان الحالة الاقتصادية والاجتماعية في اسرائيل سيئة بأكثر مما نتصور أحيانا . ومع أن مؤشر التضخم ـ وهو يشير الى معدل فيه يصل الى مائة وخمسين في المائة ـ يكفي وحده ليدل على الحقيقة ـ فان هناك مؤشرات أهم .

ولم أكن أعرف أن عدد الاسرائيليين الذين غادروا اسرائيل بتصريحات خروج مؤقت الى مدينة نيويورك وحدها يزيد عن نصف مليون . لا اتحدث هنا عن اليهود ، ولا عن الذين يحملون جنسيات مزدوجة أمريكية اسرائيلية ـ وانما اتحدث عن الاسرائيليين. أتحدث عن أكثر من نصف مليون من الاسرائيليين يعملون في مدينة نيويورك بتصريحات مؤقتة ـ وهذا رقم رسمي .

أي أن قرابة ثلث قوة العمل الاسرائيلية هاربة من الحياة في اسرائيل .

اقتصاد يترنح ، ومجتمع ينفسخ ، وللانصاف فان بعض ذلك من نتائج مراحل في العمل العربي بدأت من حرب الاستنزاف واستمرت الى ما بعد حرب أكتوبر ، وأقنعت كثيرين في اسرائيل أنه « تاريخيا » لا توجد امكانية .

أوليس غريبا أن الممكن التاريخي يضيع منا ، في حين أنهم يتمسكون باللاممكن تاريخيا ؟

لا يتركون واقعهم للعفن والتحلل ، وانما هم يحاولون .

بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية يحاولون .

بالعمل والمناورة السياسة يحاولون .

وما أخشاه حقيقة هو أن تردى أوضاعهم في الأرض المحتلة لن يدفعهم الى الاستسلام حتى تتحقق أحلامنا .

أخشى أنهم بمقدار ما يشعرون بتردي أحوالهم بمقدار ما سوف تزيد عندهم نزعات الغلاظة والعنف .

وهكذا فان أقرب الخيارات التي سوف يجدونها أمامهم لن يكون لها سوى اتجاهين :

أولهما : زيادة الضغط على مصر ـ الى حد الغلاظة ـ من أجل الاسراع في التطبيع .

وثانيهما : زيادة الضغط على بقية الجبهات العربية ـ الى حد العنف المسلح ـ وبالذات في الأرض المحتلة حتى يتم لهم ما يريدون .

يتصورون ـ ولست أظنهم على خطأ كبير ـ أن الاسراع في التطبيع مع مصر ، وانهاء المعلقات في الأرض المحتلة وعلى بقية الجبهات العربية ـ كل ذلك يعطيهم مجالا أوسع لتنفس جديد ، رئات اضافية بعد أن تحملت رئاتهم الأصلية أكثر مما تطيق ! !

□

وساءلت نفسي :

ـ هل يمكن أن تعطينا ظاهرة « عودة الاسلام » ـ كما يسمونها في الغرب ـ فرصة أخرى من فرص التاريخ ؟!

وكان ردي كما يلي :

ـ هذه قضية أكبر من مجرد سؤال وجواب .

ان الاسلام كان موجودا في حياتنا طول الوقت ، بل انه لقرون طويلة كان أكبر الأسس الثابتة للحياة العربية والحركة العربية والضمير العربي .

ما زاد علينا أخيرا ليس ظهور الاسلام ، ولكن ظهور موجة من التدين في ظاهر سلوكنا . وهذه الظاهرة لا تعود الى سنة أو سنتين ثم انها لا ترتبط ـ كما هو شائع ـ بالثورة الاسلامية في ايران .

ان نظرة متأنية كفيلة بأن تظهر لنا أن موجة التدين التي نراها الآن بدأت في أعقاب هزيمة سنة ١٩٦٧ . وبدات في مصر قبل غيرها في العالم العربي . ولم يكن تفسيرها يحتاج الى جهد كبير .

ان الهزيمة أثرت ضمن ما اثرت على قيم كثيرة تعلقنا بها قبل سنة ١٩٦٧ .

قيم التحديث والتطوير والثورة والزعامة الى آخره . . .

وحين أصاب شرخ الهزيمة هذه القيم التي دخلت حياتنا كحقائق جديدة ـ كان الانسان العربي في مصر ـ وربما في غيرها ـ يبحث عن ملاذ ومأمن يعتصم به .

والدين في كل مجتمع مؤمن ملجأ أخير وملاذ يعتصم به لأنه الحقيقة الالهية الوحيدة الباقية .

حين اهتزت الحقائق الانسانية ، لم يعد باقيا غير الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل الاهتزاز ، ولا يطولها الشرخ .

هكذا فان موجة التدين الظاهر كانت في حقيقتها موقع دفاع عن النفس وعن اليقين الضروري لأي مخلوق .

ان موجة التدين الظاهر - وليس معنى ذلك أنه سطحي - لم تقتصر على المسلمين وحدهم بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ .

كان هناك من رأوا في المنام ملائكة السماء تعبر مع القوات الى سيناء .

وكان هناك ايضا من شاهدوا صورة « السيدة العذراء » على جدار كنيسة في مصر الجديدة .

ولم تكن صدفة أن الجيوش العربية في حرب أكتوبر اندفعت الى مهامها تحمل أعلامها وتصيح : « الله أكبر » .

ان العقيدة في تلك الظروف كانت في حالة مد ، لأنها اطار علاقة الفرد بربه .
وفي تلك الظروف كان التاريخ في حالة انكماش ، لأنه اطار الحركة الانسانية للانسان .

لا تزال هذه الظاهرة موجودة حتى الآن لأن الانسان العربي لم يتخلص بعد في أعماقه من شكوكه وهواجسه . لم يستعد بعد ثقته بنفسه الى درجة تجعله يعتمد على الله في اعماقه ثم ينطلق من جديد الى الفعل التاريخي وهو المجال الذي تركته العقائد الالهية لممارسة حرية الاختيار الانساني .

قضية الثورة الاسلامية في ايران موضوع آخر .

كانت العقيدة الدينية هي الحماية الوحيدة للثورة الوطنية لعدة أسباب عامة وخاصة :

● بين الأسباب العامة أن المذهب الشيعي منذ نشأته كان تيارا ثوريا في الاسلام .

● بين الاسباب الخاصة أن حكم الشاه أطاح بكل المؤسسات

السياسية . بقي المسجد وحده مفتوحا للجماهير . وهكذا أصبح المسجد بؤرة الثورة ضد حكم الشاه .

ومع ذلك أجدني على استعداد للقول بأن هناك بالفعل تيارا اسلاميا ظاهرا ، وتلك في اعتقادي ظاهرة صحية خصوصا اذا استطاع دعاتها أن يستوعبوا حقيقة أنه لا يوجد تناقض على الاطلاق بين روح الاسلام وروح التقدم .

وهنا تصبح المشكلة : من هم المفسرون ؟ ومن أي منظور ؟

وهل تسمح لنا الظروف الراهنة بجيل من الرجال العظام الذين جعلوا المسلم في العالم العربي ـ وبالذات في مصر ـ قادرا على أن ينظر الى العالم الحديث في عينيه ؟

رجال من أمثال « رفاعة الطهطاوي » و« جمال الدين الافغاني » و« محمد عبده » و« عبد الرحمن الكواكبي » و « لطفي السيد » و « عبد الرزاق السنهوري » في مجال التشريع .

ومع ذلك فهناك مشكلة أن الاطار الاسلامي أوسع من حدود الأمة العربية .

الأمة العربية ـ وعلى اساس قيم الحضارة الاسلامية ـ لها كيان واحد باللغة والثقافة والتاريخ والمصلحة والأمن .

وذلك كله يتطلب نظاما عربيا قائما بذاته .

ومعنى ذلك أن « عودة الاسلام » بصفة عامة قد لا تحمل معها ـ بالضرورة حلا لمشاكل النظام العربي .

أي أن العقيدة قد تصنع معجزتها الخلاقة ، ويبقى التاريخ ـ مجال الفعل الانساني ـ عاجزا أو مترددا خائفا ؟

□

وساءلت نفسي :

ـ هكذا عدنا لمشاكل النظام العربي . . . ما هي حلول هذه المشاكل وأين دواعي التفاؤل ؟

وكان الرد :

• ـ أخشى أن النظام العربي الآن في مأزق . . . في وضع دفاعي لا يمكنه الا من الفعل القليل .

أتذكر أنني عندما كنت في لندن أخير فوجئت بتليفون من تونس ، من الأمين العام الجديد لجامعة الدول العربية في تونس .

قال لي السيد « الشاذلي القليبي » أنه يريد أن يلتقي بي ، واقترح أن نتقابل اما في جنيف التي سيمر بها في طريقه الى الأمم المتحدة لفحص طبي ، واما في نيويورك مقر الأمم المتحدة .

وقلت له على الفور : انني لا اتصور أن أعبر المحيط مرة أخرى عائدا الى نيويورك ، ولذلك فان اقتراح جنيف قد يكون أكثر ملاءمة ، ومع ذلك فاني أرجوه أن يترك لي فرصة حتى الغد أدبر فيها أمر ارتباطاتي المقبلة في لندن .

واتفقنا على معاودة الاتصال في الغد وهو يقول لي أنه « اذا قررت السفر الى جنيف فان مكاتب الجامعة تستطيع أن تدبر لي حجز مقعد على طائرة اليها وأمر فندق أقيم فيه هناك » .

وعندما اتصل بي الأمين العام في اليوم التالي كنت قد فكرت ووجدتني أقول : « ان اجتماعا بيننا في جنيف يبدو أمرا غير طبيعي لأني الآن في لندن وبرامجي فيها معروفة . ثم ان قيام مكاتب الجامعة العربية بتدبير حجز مكان على طائرة وغرفة فندق في جنيف قد تكون مبعث ظنون لا اريدها في هذه الظروف المشحونة بالحساسيات » .

ثم قلت له : « انني أفضل ان يكون لقاؤنا في لندن حيث أنا الآن ، فاذا

تعذر عليه المجيء اليها فاننا نستطيع انتظار فرصة أخرى » .

ولم يقتنع « الشاذلي القليبي » بهذا الجواب . واتصل بي في اليوم التالي ليقول لي أنه وجد حلا يوفق بين كل الظروف . وكان حله أن يتوقف في طريقه من جنيف الى نيويورك ساعات في مطار لندن . طائرة تصل اليه من جنيف في الخامسة بعد الظهر ، وطائرة أخرى تقوم منه الى نيويورك في الثامنة مساء ، وفي الساعات الثلاث تتاح لنا فرصة للحديث .

وهكذا في جناح حجز للّقاء في فندق «اكسلسيور» في مطار هيثرو ـ تم لقاؤنا .

راح يحدثني عن الجامعة العربية ودورها في تصوره .

وحين أحس ـ لأسباب لا دخل للعصبية الاقليمية فيها ـ أنني لا أستطيع أن أتصور جامعة عربية بغير مصر ـ كان الرجل كريما في اشارته الى أول خطاب رسمي له عندما تولى مقاليد الجامعة في تونس . ذكرني أنه في هذا الخطاب أشار صراحة الى المعنى الذي أحس به . ثم انطلق بعدها يتحدث عن آماله ومشروعاته .

تقوية المنظمات الاقليمية ـ الثقافية والاقتصادية ـ للجامعة . تعزيز مكاتب الجامعة في الخارج . زيادة فعالية جهاز الأمانة العامة .

ووجدتني أقول له :

ـ انني سوف أحدثك كقومي عربي ، وأيضا كمواطن مصري ، والحقيقة أنني لا أرى تناقضا بين الصفتين .

انك تحدثني عن تقوية المنظمات الاقليمية ، وعن تعزيز مكاتب الجامعة في الخارج ، وعن زيادة فعالية جهاز الأمانة العامة ، الى آخره .

كل هذه مهام كبيرة وجليلة ، لكني أعتقد أن هناك مهمة أخرى تسبقها جميعاً .

قد يدهشك لو قلت لك انني أعتقد أن مهمتك الأولى الآن ـ وفي العالم

العربي نفسه قبل العالم الخارجي ـ أن تبذل جهدا مركزا في محاولة تثبيت الفكرة العربية ذاتها .

هناك الآن في العالم العربي نفسه ـ وخارجه ـ شكوك ووساوس في الأساس . في أساس الفكرة العربية ذاتها .

هناك خيبة أمل لدى الجميع .

التساؤل يطرح نفسه مرة أخرى : هل هناك فعلا أمة عربية واحدة ؟ أو أن تلك الفكرة كانت وهما من أوهام أجيال عربية سبقت .

الآن لم يعد الشك في القدرة أو في الفاعلية ، وانما وصل الشك الى حقيقة الوجود ذاتها .

كثيرون في امريكا واوروبا سألوني : هل أنا واثق أن هناك بالفعل أمة عربية واحدة ؟ انهم تصوروا ذلك في وقت من الأوقات ، والآن تراودهم فيما تصوروه ظنون تهيء لهم أنهم قبلوا بالفكرة تحت ضغط الحاحنا عليها ، حتى جاءت التطورات الأخيرة فاذا الكيان العربي الذي رفعوه الى مرتبة الحقيقة يتفكك أمام عيونهم ويتشرذم ويذهب أطرافه كل الى اتجاه .

كثيرون من العرب في امريكا واوروبا ـ وايضا في مصر ـ جاءوا يسألونني بمشاعر متباينة : اذا كنا أمة واحدة فما هو التفسير المعقول لما يحدث الآن ؟

بالطبع نستطيع ـ أنت وأنا وغيرنا ـ أن نحلل أسباب هذه الشكوك والوساوس ، ونستطيع نسبتها الى ملابسات بالذات ، ولكن ذلك ليس كافيا . . . المسألة أكبر من تحليل الاسباب والعودة بها الى أية ملابسات .

لو كان لي أن أشاركك في تحديد أولوية مهامك لقلت لك : استعادة اليقين . استعادة اليقين لدى العرب ـ ولدى غير العرب ـ بأن هناك بالفعل أمة واحدة . ماضيها وحاضرها ومستقبلها واحد . وكل ما نراه الآن مجرد تفاعلات على السطح وعوارض طارئة .

كيف تصل الى تحقيق هذه المهمة ؟ مسألة تقبل التفكير ، لكني أظن أن أولويتها مطلقة ، ويجب أن تكون مطلقة .

ثم قلت للأمين العام :

ـ لا استطيع أن أرى فيما حولي الآن أسبابا تدعو الى التفاؤ ل . تفاؤ لي كله الآن في جيل عربي قد يستطيع في الثمانينات .

أخشى أن الجيل الذي نعيش وسطه الآن مهزوم .

الغريب أنه لم يهزم فعلا . وانما تصرف كأنه مهزوم .

وهذه هي المأساة ونحن على أبواب حقبة جديدة من الزمان !